القصص العالمية للجيب








Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آلام فرتر



آلام ڤيرتير

يوهان جوته

ترجمة
د. فؤاد فريد

منشورات
المكتبة الحديثة - بيروت
دار الشرق العربي - بيروت


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتاب الاول

ما اسعدني بالابتعاد ! الا ما أعجب قلب الانسان ايتها الصديقة العزيزة ! فهأنذا افارقك ـ انت التي لم اكن أطيق فراقك لانني احبك وأعزك اشد الاعزاز ـ ومع هذا اشعر لفراقك بالسعادة ! واني لاعلم انك ستصفحين عني لا محالة الا يحيك القدر احابيل الهوى لا لشيء الا لتعذيب امثالي ؟ اي ليونورا المسكينة ! ومع هذا فاللوم لا ينصب على كاهلي . افهل كان الذنب ذنبي ان هواي تولد في قلبها الرقيق في الوقت الذي كانت فيه أختها تسري عني بكل ظرف ؟ ولكن هل معنى هذا انني اخلو من الملام كل الخلو ؟ او لم اشجع عواطفها نحوي ؟ او لم تفتنني بما ابدته طبيعتها الصادقة نحوي ؟ ولكن هل يحق للمرء ان يتهم نفسه ؟ اعدك يا صديقتي العزيزة ان اصلح من شأني ، واستمتع بالحاضر ، وأطوي صفحة الماضي . ولا شك انك على صواب يا خير صديق اذ تقولين انه لخير للبشر لو كفوا عن تقليب ذكريات الاحزان الغابرة بخيالهم المتقد ، بدلا من تحمل حاضرهم بصبر وطمأنينة ، ولكن الله وحده يعلم لماذا جبل الناس على هذا .

وارجوك ان تخبري والدتي اني سادبر مسألتها الخاصة على أحكم وجه استطيعه ، وسأبلغها النتيجة في اقرب وقت ممكن . وقد زرت عمتي ووجدتها ليست على ما يرميها به اصدقاؤنا من الشكاسة ، فهي امرأة

مرحة ، ذات حيوية ، وهي اطيب الناس قلبا . وقد ذكرت لها ما أضيرت به والدتي في ذلك النصيب من ميرانها الذي حيل بينها وبينه ، فأدلت لي بالدوافع والاسباب التي املت عليها تصرفاتها ، وبالشروط التي تقبل على اساسها التسليم لوالدتي بحقها كله ، بل انها مستعدة ان تصنع لها عندئذ اكثر مما طلبناه منها . ولا استطيع ان اكتب الان المزيد في هذا الشأن . ويكفي ان تقولي لوالدتي ان كل شيء سيمضي على ما يرام ، وقد لاحظت ايتها العزيزة في هذه المناسبة ايضا ان سوء الفهم والاهمال تنجم عنهما من المساوىء والاضرار اكثر مما ينجم عادة عن سوء النية والرغبة في الشر والالتواء ...

وفيما عدا هذا اجدني بخير حال هنا . فالعزلة في هذا الفردوس الارضي بلسم لروحي ، والربيع البازغ يشرح صدري المكدود بوعوده السخية . فكل شجرة ، وكل شجيره ، حافلة بالازاهير ، حتى ان المرء ليمنى لو تحول الى فراشة ، كي يحوم ويرف على هذا البحر المترامي من العبير ، ويجد ملء كيانه فيه .

والبلدة نفسها غير مستحبة ، ولكن كل ما حولها من المناظر الطبيعية جميل خلاب . وهذا ما حدا بالمرحوم الكونت م. ان يغرس روضة على منحدر احد التلال التي تتقاطع هنا في تباين ساحر ، وتتألف من هذا التقاطع اجمل الوهاد والوديان . وهذه الحديقة غاية في البساطة ، ومن السهل ان تدركي ، منذ تطأها قدماك ، انها لا تدين بتخطيطها لبستاني عالم بالتخطيط . بل لرجل احب ان يسلم قياده ها هنا لافراح قلبه الحساس. ولقد ذرفت الدمع مدرارا على ذكرى صاحبها الراحل بين ما تبقى من البيت الصيفي الذي كان قد ابتناه هناك ، وكان ملاذه الاثير لديه ، وقد صار الان ملاذي . وعن قريب سأغدو مالك هذه الروضة ، وقد لازمني البستاني في الايام القليلة الاخيرة ، ولن يكون الخاسر بهذا التعلق .

١٠ مايو

لقد استولت على نفسي بأسرها طمأنينة رائعة ، على نحو ما يحدث لي في بواكير ايام الربيع التي استمتع بها من اعماق فؤادي ، فأنا هنا وحدي شاعرا بكل سحر الوجود في هذه البقعة التي جعلت كي تسعد بها ارواح مثل روحي ، واني لسعيد جدا ايتها الصديقة العزيزة ، ومستغرق كل الاستغراق في الاحساس بهذه المعيشة الهادئة ، حتى انني اهملت

ملكاتي ومواهبي ، فلا شك اني عاجز عن رسم اي شيء ــ مهما كان يسيرا ــ في غمرة اللحظة الراهنة ، ومع هذا أشعر انني لم اكن فنانا اقدر ولا اعظم مما انا الان ! فعندما ارى البخار يحف بي في الوادي الجميل ، وقد غمرت اشعة الشمس اعالي الاشجار ، عاجزة عن اختراق اوراقها وغصونها الملتفة ، اللهم الا شعاعات يسيرة تتسلل الى قدس اقداسي ، أنطرح ارضا بين الاعشاب الطويلة على حافة الجدول الرقراق ، وتتكشف لي عوالم لا حصر لها من النباتات التي تنبثق من الارض التي افترشها جسمي . ومن الهوام الصغيرة التي تمارس حياتها بين الجذور في جد وداب وخفاء ، وعندئذ احس انني في حضرة العلي القدير الذي صاغنا على صورته ، واشعر بأنفاس ذلك الحب الكوني الذي يمدنا بالقدرة على الحياة ، وقد اخذ يرف من حولي في سعادة ابدية . وحينما تألف عيني الظلمة ويتسع مداها ايتها الصديقة ، ويخيل الي ان الارض سكنت روحي واستولت عليها كأنها عشيقة محبوبة ، عندئذ اتمنى لو استطعت ان أصف كل هذه التصورات ، واخط على صفحة الورق كل هذه المشاعر التي تعيش وتتزاحم في داخلي ، لتكون هذه الصور مرآة روحي ، كما صارت روحي مرآة الاله اللامتناهي ! ولكن ذلك يتجاوز قدرتي ايتها الصديقة العزيزة ، ولذا تجديني ارزح ــ بل اغرق ــ تحت عبء هذه الرؤى وروعتها !

١٢ مايو

لست أدري هل ترتاد هذه البقعة أرواح مخادعة ، ام ان الاوهام السماوية التي تعمر فؤادي هي التي تجعل كل شيء فيما حولي يبدو وكأنه الفردوس ، فأمام البيت نافورة تشدني اليها كالمسحور فاذا ما هبطت على المنحدر الهين وجدت قوسا ، ألفيت تحته بمقدار عشرين خطوة جدولا في صفاء البللور يتدفق من نبع في صخرة كالرخام والجدار الضيق الذي يحدق بهذا القوس من اعلى ، والاشجار العالية التي تحف بالجدول ، والرطوبة المنعشة التي تشع من المكان تترك كلها في النفس انطباعا علويا ، ولا يمر يوم لا اقضي منه هناك ساعة من الزمان ، فأرى الصبايا يفدن من البلدة للحصول على شيء من مائه الصافي ، وهي مشغلة بريئة للوقت ، وضرورية ايضا ، كانت فيما سلف من الزمان مهمة تناط ببنات الملوك والاقيال . وحينما اخلد للراحة هناك تراودني خواطر

الحياة الابوية القبلية القديمة واراها قد انبعثت فيما حولي ، فـــأرى اسلافنا الغابرين وكيف كانوا ينشئون صداقاتهم واحلافهــــم الى جانب النافورة ، وكيف كانت الارواح الخيرة تسهـــر على حراسة النوافـــير والجداول ، وكل من جهل هذه المشاعر لن يذوق الراحة الكاملة بمعنـــى الكلمة الى جوار نافورة بعد كد يوم مجهد من ايام الصيف .

١٣ مايو

تسألينني هل ترسلين الي كتبا ، وانا اناشدك الله ان تعفيني من هذا النير ! فلا حاجة بي الى ما يقودني ويثيرني ويبث الحرارة في نفسي ، لان فؤادي يختمر فيه من تلقاء نفسه ما فيه الكفاية لي ، وان اردت شيئا يهدهدني وجدته على اكمل وجه في هوميروس . وكثيرا ما اجدني بحاجة الى ما يخفف عني ما في دمائي من وقدة الحمى المحرقة ، ولا أحسبك شهدت لفؤادي مثيلا في التقلب ، ولكن اتراني بحاجة الى ان اعترف لك بشيء من هذا يا صديقتي العزيزة ، التي كثيرا ما شهدت انتقالي المفاجيء من الحزن والاسى الى الفرح المسرف ، ومن الانسجام والتناغم العذب الى الاندفاع العنيف . اني لاعالج قلبي المسكين وكأنه طفل عليل ، والبي لـــه كل رغبة ، فلا تشيري الى شيء من هذا بعد الان ، فهناك أناس غـــيرك خليقون ان يعذلوني عليه .

١٥ مايو

لقد اصبح عامة اهل هذا الموضع يعرفونني ، ويحبونني ، ولاسيمـــا الاطفال منهم ، فعندما خالطتهم في البداية ، واستفهمت ــ بلهجة ودية ــ عن شتى احوالهم ، ظن فريق منهم اني اريد السخرية بهم ، فانصرفـــوا عني في سخط بالغ ، ولكني لم أدع ذلك يحزنني ، بل ازداد شعوري بما لاحظته في كثير من الاحيان من قبل ، فالاشخاص ذوي الاقدار او المكانة ينزعون الى التباعد عن عامة الناس ، وكأنهم يخشون ان يفقدوا اهميتهـــم بمثل هذا الاتصال ، اما المتسكعون ومن يميلون الى الهذر فيتصنعـــون النزول الى مستواهم لا لشيء الا لكي يجعلوا الفقراء يزدادون شعورا بحدة سلاطتهم وقحتهم . واني لأعلم تمام العلم اننا لسنا سواسية ، ولـــن نكون ، بيد ان رايي ان من يتحاشى العامة كي لا يفقد احترامه ملوم كما

يلام الجبان الذي يتوارى من عدوه لانه يخشى الهزيمة !

ومنذ ايام ذهبت الى النافورة ، فوجدت هناك فتاة خادمة شابـــة كانت قد وضعت جرتها على الدرجة السفلى ، ووقفت تتلفت لترى هل احدى رفيقاتها قادمة لتضع لها الجرة على راسها ، فجريت ونظرت اليها، وسألتها : «اساعدك ايتها الصبية الحسناء ؟» فاحتقن وجهها من شدة الخجل وهتفت : «أوه يا سيدي !» . فقلت لها : «لا كلفة في الامر !» ، فسوت بيدها غطاء رأسها ، وساعدتها فشكرتني ، ثم صعدت الدرج .

١٧ مايو

نجحت في عقد صلات تعارف شتى ، ولكني لم اجد حتـــى الان مجتمعا بمعنى الكلمة ، ولست أدري ما سر جاذبيتي بالنسبـة للناس ، فالكثيرون منهم يستلطفونني ويربطون انفسهم بي ، وعندئذ أشعر بالاسف عندما يكون الطريق الذي نسير فيه معا قصير المدى . وان سألتني عـن الناس هنا اجبتك انهم كسائر الناس في كـل مكان . فالجنس البشري شديد التشابه في رتابته . ومعظمهم يكدون معظم الوقت للحصول على ما يقيتهم ، اما القسط اليسير من الحرية المتاح لهم فيزعجهـم بحيث يجتهدون بشتى الطرق كي يتخلصوا منه ، وهكذا قدر الانسان ! بيـد انهم قوم على ما يرام ، وحينما انسى نفسي وأسهم في المسرات البريئة التي لم تحظر بعد على الفلاحين فأمتع نفسي ـ مثلا ـ في طلاقة واخلاص حقيقيين ، حول مائدة ، او أرتب رحلة او حفلا راقصا ، فان ذلك يجدي مزاجي أحسن الجدوى . وكل ما هناك انه ينبغي علي ان انسى ان ملكات اخرى كثيرة هاجعة في أعماقي ، لا تجد لها نشاطا ، ولا بد لي ان اخفيها عنهم ! آه ! لكم يؤثر في نفسي هذا الامر بصورة مخيفة . ولكن اساءة الفهم قدر أمثالنا !

واأسفاه ! لقد رحلت صديقة شبابي ! ليتني ما عرفتها قط ! واني لاقول لنفسي : «انك لحالم اذ تنشد ما لن تجده في هذه الدنيا» . ولكنها كانت لي ، وقد تملكت يوما ذاك القلب ، وتلك النفس النبيلـة ، وكنت أبدو في حضرتها اكثر مما انا في الحقيقة ، لانني عندئذ كنت كامـــل الكينونة . وهل كانت ملكة من ملكاتي تظل دون تمام نشاطهـا وأنا بين يديها ؟ بل كانت المشاعر التي يجيش بها فؤادي تنطلق انطلاقا . او لم تكن علاقتنا نسيجا أبديا من العواطف والبديهة الحاضرة المتوقدة ، حتى

انها لتحمل طابع العبقرية في بدواتها المسرفة ؟ ولكن وا أسفــــاه ! ان السنوات القلائل التي كانت تكبرني بها قد عجلت بها الى القبر من قبلي . ولن انسى ابدا عقلها القوي ولا صبرها الطويل .

ومنذ بضعة ايام التقيت بشاب اسمه ف. فيه صراحة وتفتح ، وشكله لطيف الى اقصى حد ، غادر الجامعة لتوه ، ولا يرى نفسه أحكم الحكماء، الا انه يعتقد انه يعرف اكثر مما يعرفه سائر الناس . وقد جد واجتهد، كما لاحظت ذلك في مناسبات كثيرة ، وهو على الجملة يختزن معلومـــات كثيرة . ولما علم اني اكثر من الرسم ، وأعرف اليونانية القديمه (وهمـــا امران عجيبان في هذه البقعة) جاءني ليعرض امامي كل مخزونه مـــــن المعرفة والدرس ، وقال لي انه قرأ الجزء الاول من نظرية سولنزر ، وان لديه مخطوطا من تاليف هيني عن الآثار القديمة . وتركته يقول ما قال . وتعرفت ايضا على شخص فاضل جدا ، وهو قاضي الناحية الصريـــح الطيب القلب . وقيل لي انه من الطف الامور ان يراه المرء وسط اطفاله، وعددهم تسعة ! والناس يطرون كبرى بناته على الخصوص . وقد دعاني لزيارته ، وفي نيتي ان ازوره في اول فرصة . وهو مقيم في احـــــد اكواخ الصيد الملكية ، وهو على مسيرة ساعة ونصف على الاقدام. وقد حصل على اذن بسكني ذلك الكوخ على اثر وفاة زوجته ، لانه من العسير المؤلم له ان يظل بعد فقدها قاطنا في المدينة ، بمبنى المحكمة .

وقد تعرفت ايضا على بعض الاشخاص من غريبي الاطوار ، ووجدت عشرتهم غير مستحبة من وجوه كثيرة ، ووجــدت اسلوبهم في اظهـــــار الصداقة لا يطاق . والآن وداعا ، واحسب هذا الخطاب خليقا ان يسرك ، لصبغته التاريخية .

٢٢ مايو

يطاردني الاحساس بأن حياة المرء ان هي الا حلم . فعندما اتامل الحدود الضيقة التي حبست بداخلها انشطتنا وملكاتنا ، وكيف تتبدد طاقاتنا في سبيل الحصول على الكفاف من الضروريات التي لا غاية من ورائها بعد كل شيء سوى اطالة حياتنا التعسة ، وان كل ما نحصل عليه مـــن السرور بصدد جهودنا او ابحاثنا لا يفضي الا الى استسلام سلبي ، بينما نحـــن نسلي انفسنا بتزيين جدران سجننا بالاشكال البهيجة والمناظر الخلابة — اقول عندما اتأمل هذا كله — يا ولهلم — الوذ بالصمت ، وافحص وجودي،

فأجد ثمة عالما ، ولكنه على الارجح عالم من الأخيلة والرغبات الغامضة ، وليس عالما من الوضوح والتميز وقوة الحياة ، وحينئذ يعوم كل شيء امام حواسي ، وابتسم واحلم ، وانا اشق طريقي في الحياة .

وجميع الاساتذة والعلماء متفقون في الرأي على ان الاطفال لا يدركون علة رغباتهم ، ولكن الكبار ايضا يجوبون الارض كالاطفال ، غير عالمين من اين جاءوا ، ولا ايان يذهبون ، وقلما توجههم الدوافع الثابتة ، فهم كالاطفال الصغار يسيرون وراء اغراء الحلوى ، ويرهبون العصا ، بيد انه ما من احد يعترف بهذا ، مع انه صواب فيما ارى .

واني لاعرف ماذا عسيت ان تقول ردا على هذا ، وانا على استعداد للاقرار بأن اسعد الناس هم من يشبهون الصغار ، فيتسلون بالالاعيب ، وبالباس الدمى او تعريتها من ثيابها ، ويرقبون الصوان الذي تدخر فيه الأم الحلوى ، حتى اذا ظفروا بقطعة منها اكلوها بنهم وهتفوا : هل من مزيد !.. اولئك ــ يقينا ــ هم السعداء ، ولكن الآخرين ايضا مغبوطون، اعني من يضفون على مشاغلهم الصغيرة الشأن ، بل وعلى أهوائهم احيانا ، الالقاب الطنانة ، وكأنها من جلائل الامور التي تستحق التمجيد !.. اما الانسان الذي يعرف كم هذا باطل كله ، ويلاحظ كيف يحول المواطن الدءوب ــ في لذة ــ حديقته الصغيرة الى جنة ، وبأي صبر يتابع الفقير طريقه الشاق وهو يرزح تحت وقر ما ينوء به من أعباء وكيف يتوق الجميع على السواء الى مزيد من نور الشمس . اجل ، هذا المرء سعيد ايضا ، لانه بشر ، ويعيش في سلام مع نفسه لانه يبدع في سريرته عالمه الخاص به . ومهما كان مجاله محدودا ، فحسبه انه يحتفظ في صدره بالشعور العذب بالحرية ، وانه يعلم ان بوسعه ان ينطلق من سجنه متى شاء .

٢٦ مايو

تعرف من قديم طريقتي في الاستقرار بأي مكان ، وكيف أختار كوخا صغيرا في بقعة مستكنة ، فأخلد اليهما مهما كانت المضايقات . وهنا ايضا اكتشفت مكانا مريحا هادئا يتميز في نظري بسحر خاص . فعلى مسافة فرسخ من البلدة مكان اسمه «فالهايم» يقع على جانب تل ، واذا سرت في احد الدروب المتفرعة من القرية تكشف لك منظر الوادي كله . وتعيش ها هنا امراة طيبة عجوز تدير خانا صغيرا وتبيع فيه النبيذ ، والجعة ، والقهوة ، وهي مرحة لطيفة برغم تقدمها في السن . واهم

مزايا هذه البقعة وجود شجرتي زيزفون ، تبسطان اغصانهما الهائلة فوق المرج الصغير الواقع امام الكنيسة ، وتحيط به أكواخ الفلاحين واهراء غلالهم . وقلما وقع بصري على مكان في مثل هذه العزلة والسكينة . وكثيرا ما جعلتهم ينقلون اليه مائدتي ومقعدي من داخل الخان ، وهناك اشرب قهوتي ، واطالع هوميروس . وقد ساقتني الصدفة الى ذلك الموضع ذات عصر بديع ، فوجدته خاليا تماما ، لان الجميع كانوا في الحقول ، اللهم الا صبي في نحو الرابعة من عمره ، كان جالسا على الارض ، وقد وضع بين ركبتيه طفلا في نحو الشهر السادس من العمر ، وجعل يضمه الى صدره بكلتا ذراعيه ، بحيث جعله كالجالس في كرسي وثير ذي ذراعين ، وبرغم الحيوية التي كانت تتقد في عينيه السوداوين ظل ساكنا في موضعه تمام السكينة فسحرني هذا المنظر ، فجلست على محراث كان قبالته ورسمت بكل حبور هذه الصورة الصغيرة للحنان الاخوي ، واضفت اليها سور النبات القريب ، وباب مخزن القمح ، وبعض عجلات العربات المحطمة حسبما وجدتها ملقاة هناك . وفي مدى ساعة وجدتني قد انجزت رسما صحيحا للغاية ، ومثيرا للاهتمام . من غير ان أضيف اليه شيئا من عندي اطلاقا ، الامر الذي دعاني لتخصيص كل وقتي مستقبلا للطبيعة ، فهي وحدها المعين الذي لا ينضب ، والكفيل بتكوين اعظم اساتذة (الفن) . وقد يقال الكثير عن القواعد ، والكثير ايضا عن قوانين المجتمع ، وصحيح ان الفنان الذي يدين بتكوينه لهذين المصدرين لن ينتج شيئا مفرط الرداءة او مقززا ، كما ان المرء الذي يراعي قوانين اللياقة وبطيعها خليق الا يكون سمجا لا يطاق من جانب جيرانه ، وجدير الا يكون وغدا . ولكن مهما قلت واعدت في اهمية القواعد ، فهي على كل حال تدمر الشعور الاصيل بالطبيعة ، وتدمر كذلك التعبير الصادق عنها . ولا تقل لي : «ان هذا امعان في التشرد ، فالقواعد تكبح الاغصان الفضولية وتشذبها فحسب» . وما الى ذلك . ولسوف اسوق اليك في هذا الصدد مثلا ايها الصديق الكريم . فهذه الاشياء اشبه بالحب . فالشاب الدافىء القلب يغدو شديد الارتباط بفتاة ، ويقضي كل ساعات يومه في صحبتها ، ويهدم في ذلك السبيل صحته ويبدد ثروته، كي يثبت لها انه يتعلق بها كل التعلق ، ثم يأتي رجل من رجال المجتمع ذو مكانة واحترام ويقول له : «الحب شيء طبيعي ايها الشاب ، ولكنك ينبغي ان تحب في نطاق محدود ، فقسم وقتك ، وخصص جانبا منه

للاشغال ، وامنح اوقات راحتك واسترخائك لمحبوبتك ، واحسب مقدار ثروتك ، وخصص جانبا من فائضها لتقديم الهدايا اليها ، لا في اوقات متقاربة ، بل بمناسبة عيد ميلادها ، وما الى ذلك من الاحايين» . فاذا اتبع الشاب هذا النصح غدا عضوا نافعا في المجتمع ، واني انصح كل امير ان يعينه في منصب ، ولكن سلام على حبه عندئذ ، وعلى عبقريته ان كان فنانا ! آه يا صديقي ! لماذا لا ينبجس فيض العبقرية الا نادرا جدا، ونادرا جدا ما يتدفق جدولا طاميا يغمر روحك المأخوذ ؟ ذلك انه على كلا جانبي هذا الجدول القدسي اقام أناس باردون محترمون مساكنهم ، ولذا يمكن ان تتأذى حدائق ازهارهم وبيوتهم الصيفية بفيضان ذلك المجرى المهيب ، ومن ثم حفروا الخنادق ، واقاموا المتاريس والسدود ، كي يصدوا ذلك الخطر الماحق .

٢٧ مايو

لقد استغرقتني النشوة واندفعت في التشبيهات ونسيت ان احدثك بما كان من امر الطفلين . وكنت قد انغمست في تأملاتي الفنية التي وصفتها بايجاز في خطاب الامس ، وظللت جالسا على المحراث مقدار ساعتين من الزمان . وقبيل المساء اقبلت امرأة شابة وقد علقت بذراعها سلة تجري نحو الطفلين اللذين لم يكونا قد تحركا طيلة ذلك الوقت . وصاحت الشابة عن بعد : «يا لك من غلام طيب يا فيليب !» . وحيتني، فرددت عليها تحيتها ونهضت فاقتربت منها ، وسألتها اهي والدة الطفلين الجميلين ، قالت : نعم ، واعطت اكبرهما كسرة خبز ، ثم تناولت الاصغر بين ذراعيها وقبلته بحنان الام وقالت : «لقد تركت طفلي في رعاية فيليب بينما ذهبت الى البلدة لابتاع شيئا من خبز القمح ، وشيئا من السكر ، وقدرا من الفخار» ورأيت هذه الاشياء في سلتها التي كان الغطاء قد سقط عنها ، واستطردت هي : «فاني بسبيل ان اصنع الليلة شيئا من المرق لصغيري هانز (وهو اسم الطفل الاصغر) لان ابني الاكبر كسر لي قدري امس وهو يتصارع مع فيليب على ما تبقى من محتوياتها» . وسألتها عن ابنها الاكبر هذا ، فلم يكد يتسع لها الوقت لتقول لي انه يقود اوزتين الى الدار من المرعى ، حتى رأيته قادما يعدو ، واعطى فيليب عسلوجا من الصفصاف . وتحدثت برهة قصيرة مع المرأة ، فعرفت انها ابنة معلم المدرسة ، وان زوجها مسافر الى سويسرا لتحصيل مبلغ من

المال تركه له احد ذوي قرباه . وقالت في صدد ذلك : «لقد ارادوا ان يغشوه ، ولم يردوا على خطاباته ، فذهب الى هناك بنفسه . واتمنى الا يكون قد اصابه حادث ، لاني لم أتلق رسالة منه منذ سفره» . وفارقت المرأة آسفا ، بعد ان اعطيت كل ولد من ابنائها «كرويتـــزرا» ، وزدت الاصغر منهم كرويتزرا اخر ، ليشتري شيئا من خبز القمح لحسائه عندما تذهب المرأة القادمة الى البلدة .

واؤكد لك يا صديقي العزيز ان مرأى مثل هذه المخلوقة يهدىء نفسي المضطربة عندما تكون خواطري في عنفوان جيشانها ، فهي تتحرك فـي خلو بال داخل حدود دائرة وجودها ، وتنشد ما يسد حاجاتها يوما بيوم، وعندما ترى الاوراق تتساقط لا يثير ذلك في نفسهـــا شيئا سوى أن الشتاء على الابواب .

ولقد اكثرت من الذهاب الى هناك بعد ذلك مرارا متوالية ، والفني الاطفال ، واعطي كلا منهم قطعة من السكر عندمـا اشرب قهوتـي ، ويشاركونني اللبن والخبز والزبد في المساء ، ويحظون بكرويتزرهم دائما يوم الاحد ، لان المرأة الطيبة لديها امر مني باعطائهم اياه اذا لم اذهب الى هناك بعد قداس المساء . وهم لفرط الفتهم لي يروون لي كل شيء ، ويسليني كثيرا ان ارقب حالاتهم المزاجية ، وبساطة سلوكهم عندمـا يجتمع معهم نفر من اطفال القرية الاخرين . وقد تعبت كثيرا كي أهدىء من قلق الام التي كانت تخشى (كما تقول) «ان يضايقوا السيد» .

٣٠ مايو

ان ما ذكرته لك اخيرا عن الرسم يصدق ايضا على الشعر ، فانه من الضروري لنا ان نعرف فحسب ما هو الممتاز حقا ، ونحاول التعبير عنه. وهذا هو قصارى القول . وقد رأيت اليوم مشهدا لو روي بأسلوب ادبي لكان أجمل قصيدة رعوية . ولكن ما حاجتي الى الحديث عن الشعـر والمشاهد والقصائد الرعوية ؟ أليس في وسعنا ان نبتهج بالطبيعة من غير ان نلتجىء الى الفن ؟

ولئن توقعت شيئا رائعا بديعا من هذه المقدمة فانت مخطىء ، فهي لا تتعلق الا بفلام فلاح اثار في نفسي اهتماما حارا ، وسأروي لك قصتي في سرد رديء كالعادة ، وستراني كالعادة مولعا بالمبالغة ، ولكنها «فالهايم» مرة اخرى — ودائما فالهايم — تأبى الا ان تمدني بهذه الظاهرات المدهشة.

كانت جماعة قد جلست خارج البيت تحت شجرتي الزيزفون لشرب القهوة ، ولم تعجبني هذه الصحبة ، ولذا تأخرت عنهم قليلا متذرعا بعلة او بأخرى ، وخرج فلاح من بيت مجاور وشرع يعمل في اصلاح المحراث الذي رسمته أخيرا ، وسرني مظهره ، فتحدثت اليه، وسألته عن ظروفه، وتعرفت به ، وسرعان ما ظفرت بثقته كعادتي مع أمثاله ، فقال انه في خدمة ارملة شابة تعتز بخدمته كثيرا . واطنب في الحديث عن سيدته ، واطراها أيما اطراء ، حتى ادركت انه غارق في حبها حبا يائسا ، وقال: «انها لم تعد شابة ، وكان زوجها السابق يسيء معاملتها ، لذا قررت الا تتزوج مرة اخرى» . ولكن لهجته دلتني على انها فتنته أيما فتنة ، وعلى انه يتمنى من كل قلبه لو اختارته لاخماد ذكرى سوء معاملة زوجها الراحل لها . وأراني بحاجة الى سرد ألفاظه بحروفها كي اصف عمق تعلق هذا المسكين وصدق تولهه بها . والواقع ان ذلك يقتضي مواهب شاعر عظيم كي ينقل تعبير ملامحه ، وتناغم صوته واتقاد نظراته . وما من ألفاظ يمكن ان تصور الحنان الفائض من كل حركة من حركاته ، وكل لمحة من لمحاته . وعبثا اجتهد في نقل هذا المشهد لك بما يوفيه قدره . ومست أوتار قلبي امارات ذعره خشية ان اسيء تصور موقفه بازاء مخدومته ، او يساورني الشك في نظافة سلوكها . ولا سبيل الى التعبير عن الاسلوب الساحر الذي وصف به قامتها وشكلها ، وكيف انها ــ وان تجاوزت نضرة الشباب ــ قد قيدته الى شخصها . واني لأدع هذا لخيالك . والحق انني لم أصادف في حياتي كلها ولم أتخيل قط امكان مثل هذا التوله والاعزاز ، مقترنين بكل هذا النقاء . فلا تلمني اذا قلت لك ان ذكرى هذه السذاجة وهذا الصدق قد انطبعت انطباعا عميقا في أغوار نفسي ، وان صورة هذا الاخلاص والحنان تراودني حيثما كنت ، وان قلبي يتوهج في صدري لهذه الذكرى كأنما اتقدت فيه ألسنة اللهب.

وانا الان مشغول برؤياها في اقرب وقت . او لعل الأحجي الا اراها، وان أكتفي برؤيتها من خلال عيني محبها ، فقد لا تبدو في عيني على نحو ما تتراءى الان لي ، فلماذا ادمر صورة حلوة .

١٦ يونيو

«لماذا لا اكتب اليك ؟» من حقك ان تعرف . وقد يعن لك ان توجه الي هذا السؤال . ولكن كان ينبغي ان تخمن انني بخير ، اي انني

ـ باختصار ـ قد تعرفت الى شخص استطاع ان يستحوذ على قلبي ..
وقد حدث هذا ، لا ادري كيف . فمن العسير ان أقدم لك بيانا شافيا
عن الطريقة التي بها تعرفت الى الطف النساء وآنسهن . فأنا امرؤ سعيد
قرير العين ، ولكنني مؤرخ هزيل .

ملاك هي ! ولكن هذا القول هراء ! فكل امرىء يصف محبوبته هذا
الوصف ، ومع هذا اجد من المستحيل على ان اخبرك كم هي كاملـــة
المحاسن . او لماذا هي كاملة الى هذا الحد الكبير ، ولكن بحسبك ان اقول
انها أسرت جميع حواسي . ففيها من البساطة الشيء الكثـــير جدا ،
مقترنة بالكثير جدا من الفهم ــ وهي دمثة جدا ، بيد انها مع هذا ذات
همة وعزم ، فعملها ثابت الدعائم ، حياتها شديدة النشاط .

ولكن هذا القول كله هراء قميء لا يرقى الى مستوى سمة واحدة من
سمات خلقها وخلقها . وفي فرصة اخرى ــ بل كلا . ليس في فرصة
اخرى ، وانما الان ، في هذه اللحظة وفورا ، سأخبرك بكل شيء عنها .
الان والا فلا . والحقيقة ــ بيني وبينك ــ انني اوشكت منذ بدأت هــذا
الخطاب ان اضع القلم من يدي ، وآمر باسراج جوادي لانطلق به . مع
اني كنت قد آليت على نفسي الا امتطيه اليوم ، بيد اني لا اكف ــ بين
لحظة واخرى ــ عن الاندفاع الى النافذة لارى اين بلغت الشمس مــن
الارتفاع في قبة السماء .

لم استطع ان اكبح جماح نفسي ، ولم يكن لي من الذهاب اليها بد .
وقد عدت لتوي يا فلهلم ، وسأكتب اليك وانا اتناول عشائي . فما كــان
أبهج روحي برؤياها وسط اطفالها الاعزاء الحسان : ثمانية من الاخـــوة
والاخوات ؟

ولكنني اذا امضيت في الحديث على هذا المنوال فلن يفيدك هذا حتى
نهاية خطابي شيئا اكثر مما كنت تعرفه في بدايته. فصبرا اذن ، وسأحاول
ان احمل نفسي على تزويدك بالتفصيلات .

لقد ذكرت لك منذ بضعة ايام انني كنت قد تعرفت بالسيد س ..
قاضي الناحية ، وانه دعاني للذهاب الى زيارته في معتكفه ، او علــى
الاصح في مملكته الصغيرة . بيد اني اهملت في تلبيـــة هذه الدعوة ،
ولعلني ما كنت لأذهب اطلاقا لولا ان الصدفة كشفت لي عن الكنز الـذي
يكمن مخبوءا في هذه البقعة المنعزلة . ذلك ان بعض الشباب هنا اقترحوا
اقامة حفل راقص في الريف ، وقبلت الاشتراك فيه . واخترت لصحبتي

في تلك الامسية الى فتاة من ابناء جيرتي المباشرة فيها ملاحة وظرف ، ولكنها عادية على كل حال ، واستقر الراي على ان استأجر عربة وامر على «شارلوت» مع شريكتي وخالتها ، لأوصلهن الى الحفل الراقص . وقالت لي مرافقتي ــ ونحن في الطريق وسط البستان الى كوخ الصيد ــ انني سأتعرف على سيدة شابة فاتنة للغاية . وأردفت خالتها : «خذ حذرك حتى لا يفتن بها فؤادك !» فسألتها «ولم هذا التحذير ؟» فقالت «لانها مخطوبة بالفعل لرجل فاضل جدا ، سافر لتسوية احواله المالية بعد وفاة والده الذي ترك له ميراثا ضخما جدا» . ولم يثر هذا النبأ شيئا ذا بال في نفسي . وعندما وصلنا الى البوابة كانت الشمس قد مالت للمغيب وراء قمم الجبال ، والجو ثقيل ، فتخوفت السيدتان من وشك هبوب العاصفة ، لان كتلا من السحاب الاسود كانت تتجمع فوق الافق ، فحاولت صرف القلق عنهما وادعيت اني من خبراء الاحوال الجوية، مع اني كنت لا اخلو شخصيا من التوجس خشية ان تفسد العاصفة علينا متعتنا .

وترجلت من العربة . واقبلت خادمة عند الباب ورجتنا ان ننتظر سيدتها برهة ، فاجتزت الفناء الى بيت حسن البناء ، وصعدت الدرج الامامي وفتحت الباب فرأيت قبالتي أفتن منظر رايته طول حياتي ، فثمة ستة اطفال تتراوح أعمارهم بين احدى عشرة سنة وسنتين ، يتجاورن في البهو من حول سيدة متوسطة الطول ، ذات قامة بديعة ، ترتدي ثوبا ابيض بسيطا مزينا بشرائط وردية اللون . وكانت تحمل في يدها رغيفا من دقيق الجودار تقتطع منه للصغار من حولها ، وفق أعمارهم وشهيتهم . وكانت تقوم بهذه المهمة بأسلوب رشيق يفيض اعزازا ، وكل واحد من الصغار ينتظر دوره بيدين ممدودتين ، وأصواتهم تصخب من حولها بالشكر والابتهاج . وكان بعضهم يبتعدون سراعا بعد الحصول على نصيبهم لينعموا بوجبة المساء ، في حين ذهب آخرون ــ وهم ارق حاشية ــ الى الفناء لرؤية الغرباء ومشاهدة العربة التي ستستقلها عزيزتهم شارلوت التي قالت :

ــ ارجو ان تغفر لي اني جشمتك مشقة الحضور الي ، واني استبقيت السيدتين في انتظار قدومي ، فان مشاغل اللبس وبعض الواجبات المنزلية قبل انصرافي قد انستني عشاء الاطفال ، وهم لا يحبون ان يتناولوه من يد احد سواي .

وتفوهت بعبارة مجاملة حيثما اتفق ، ولكن روحي كلها كانت مستغرقة

في منظرها ، وصوتها وطريقة كلامها وحركتها ، ولم اكد استرجع رباطة جأشي حتى اندفعت تجري الى حجرتها لاحضار قفازها ومروحتها ، واخذ الصغار يرمقونني بنظرات مستفسرة عن بعد ، فاقتربت من اصغرهم ، وهو مخلوق صغير «لذيذ» جدا ، فتراجع الى الوراء ، وقالت شارلوت التي عادت في هذه اللحظة :

ـ لويس ! صافح ابن عمك !

فصدع الصغير بالامر طواعية ، ولم اتمالك نفسي ان اقبله قبلة مدوية ، برغم قذارة وجهه . وقلت لشارلوت وانا آخذ بيدها لتهبط السلم :

ـ يا بنت العم ! اتراني حقا جدير بسعادة الانتماء الى قرابتك ؟

فقالت باسمة :

ـ ان لي عددا كبيرا من ابناء العم ، بحيث يحزنني الا تكون في عدادهم .

وعندما ودعت اخوتها طلبت من اختها التالية لها في العمر ـ واسمها «صوفي» ، وسنها حوالي احدى عشرة سنة ـ ان ترعى الاطفال ، وان تبلغ تحيتها لوالدها عندما يعود من نزهته على صهوة جواده . واوصت الصغار ان يطيعوا شقيقتهم صوفي كطاعتهم لشخصها ، ووعدها بعضهم بهذا ، بيد ان فتاة شقراء الشعر في نحو السادسة من عمرها بدا عليها عدم الاقتناع وقالت :

ـ ولكن صوفي ليست انت يا شارلوت . ونحن نحبك اكثر .

وتسلق اكبر غلامين من اخوتها العربة ، فسمحت شارلوت لهما ـ بناء على وساطتي ـ بأن يصحبانا بعض الطريق وسط الغابة ، بعد ان وعدا بالجلوس ساكنين ، والامساك بالعربة امساكا وثيقا .

وما كدنا نجلس ، وما كادت السيدات يتبادلن تحيات المجاملة ، وأبدت كل منهن التعليقات المألوفة على زي الاخرى وزينتها ، وعلى الاشخاص الذين يتوقعن صحبتهن في تلك الامسية ، حتى امرت شارلوت بوقوف العربة وجعلت شقيقيها ينزلان عنها ، فأصرا على تقبيل يديها مرة اخرى . ولثم اكبرهما يد اخته بكل رقة فتى في الخامسة عشرة ، اما الاخر فلثمها بمزيد من الخفة وبلا عناية ، وطلبت شارلوت اليهما مرة اخرى ان يبلغا اخوتها الصغار تحيتها ، ثم انطلقت بنا العربة .

وسألت الخالة شارلوت هل فرغت من الكتاب الذي ارسلته اليها اخيرا فقالت شارلوت :

ـ كلا ! فأنا لم احببه ، وفي وسعك ان تستردیه . وكذلك الكتاب الذي قبله لم يكن افضل منه كثيرا .

وادهشني ـ عندما سألت عن عنوان الكتاب ـ ان أعرف انه كتاب «.. ..» والحق انني وجدت نفاذ بصيرة وقوة شخصية في كل ما تفوهت به ، وكل تعبير صدر منها وكأنه يشع نورا على ملامحها ويضفي عليها سحرا جديدا وشعاعا جديدا من العبقرية التي كانت تتكشف شيئا فشيئا كلما تبينت انني ازداد لها فهما . واردفت شارلوت تقول :

ـ عندما كنت أصغر سنا لم اكن احب شيئا قدر حبي للروايات العاطفية ، فلم يكن شيء يعدل سروري اذا ما تسنى لي في احدى المطلات أن استكن بهدوء في ركن من الاركان ، وانغمس بكل روحي وقلبي في أفراح البطلة الوهمية واحزانها . ولست انكر ان ذلك لم يزل يفتنني الى الان الى حد ما ... ولكنني قلما اقرا الان ، ولذا أوثر كتبا توافق ذوقي تمام الموافقة . وأنا احب حاليا اولئك المؤلفين الذين تصف مشاعرهم ـ اكثر ما تصف ـ حالا مثل حالي ووضعا مثل وضعي في الحياة .. كما احب ـ اكثر من سواهم ـ أولئك الاصدقاء من حولي الذين تثير حكاياتهم اهتمامي ، بما فيها من أوجه الشبه مع حياتي الصميمة المألوفة ، وهي حياة ان لم تكن الفردوس بحذافيره ، فهي على الجملة مصدر سعادة لا توصف .

وحاولت ان أخص الانفعال الذي اثارته لدي هذه الكلمات ، ولكن ذهبت جهودي هباء ، لانها عندما عبرت بصدق شديد عن رايها في «قس واكفيلد» وغير هذه القصة من الاعمال التي اغفل هنا ذكر اسمائها، لم أقدر على تمالك نفسي ، واطلقت للساني العنان فقلت لها رأيي بكل صراحة ، ولم أتذكر وجود السيدتين الاخرتين الا عندما وجهت شارلوت اليهما الخطاب ، فرأيتهما جالستين وقد عقدت الدهشة لسانيهما ، ورمتني الخالة عدة مرات بنظرات مزاح لم ابال بها اطلاقا .

وتحدثنا عن مباهج الرقص ، فقالت شارلوت :

ـ لئن كان حب الرقص خطأ ، فانا على استعداد للاعتراف بأني اعلي متعته على سائر المتع ، فاذا ما اقلقني امر ما توجهت الى البيانو وعزفت مقطوعة مما كنت قد رقصت على انغامه قبل ذلك ، فينصرف عني ما اكابده فورا .

وتستطيع ـ انت الذي تعرفني ـ ان تتخيل بأي اصرار حدقت في عينيها السوداوين الثريتي السواد وهي تدلي بهذه الملاحظات ، وكيف

حامت روحي حول شفتيها الدافئتين ، وخديها الناضريـــن المتوهجين ، وكيف همت وعزفت في المعاني البديعة التي عبرت عنها كلماتها ... وقد بلغ من حالي هذا انني لم اكد اسمع الفاظها الفعلية . وقصارى القول انني ترجلت من العربة أشبه بشخص في غيبوبة حلم ، وكنت غائبا عن العالم الغامض من حولي حتى اوشكت الا أسمع الموسيقى المنبعثة من قاعـــة الرقص المضيئة .

وقد بلغانا السيدان اندران و ن.ن. (ولن أجشم نفسي ذكـر الاسماء) وهما رفيقا الخالة وشارلوت عند باب العربة ، وأخذ كل منهما شريكته ، وتبعتهما انا مع شريكتي .

وبدانا برقصة المنيويت البطيئة الرزينة . وقدت فيها سيدة في اثر اخرى . وكانت اشدهن سماجة هن اللواتي يأبين بالذات ان يحملـــن انفسهن على ترك مشاركتي . وبدات شارلوت مع شريكها رقصة ريفيـة انجليزية ، ولك ان تتصور مبلغ حبوري عندما حان لهما ان يرقصا معنا. وليتك ترى شارلوت وهي ترقص ، فهي ترقص بكل قلبهــــا وروحها : فقامها كلها تناغم ورشاقة واناقة ، وكأنها لم تعد تعي شيئا اخر ، ولا تخامرها في غير الرقص فكرة او خلجة ، ولا شك عندي في ان كـــل احساس لديها بما عدا الرقص يتلاشى في تلك اللحظة .

وكانت مرتبطة بآخر في الرقصة الريفية التالية ، لكنها وعدتنـــي بالرقصة الثالثة ، واكدت لي بكل صراحتها المحببة انها مغرمة جدا برقصة الفالس ، وقالت :

ــ لقد جرت العادة هنا ان يرقص الفالس شريكا الرقصة السابقـــة عليها . ولكن شريكي لا يتقن الفالس ، ولسوف يبهجه ان أجنبه هـــذه المشقة . وشريكتك غير مصرح لها بالفالس ، وهي ايضا لا تستطيعه ، اما انت فقد لاحظت اثناء الرقصة الريفية انك تحسن الفالس . فاذا اردت ان تراقصني الفالس ارجوك ان تقترح ذلك على شريكي ، وسأقترح انا مثل ذلك على شريكتك .

ووافقتها على ذلك ، وهكذا رتبت الامور بحيث يراقص شريكهـــا شريكتي .

وشرعنا في الفالس . وفي البداية استمتعنا بحركـــات الذراعين المعتادة الرشيقة ، ويا لله ! ما أحلى رشاقتها ، وما أيسر حركتها ! ولما بدا الفالس وراح الراقصون يدور كل منهما حول الاخر في المتاهة الجالبة للدوار ، ساد شيء من الاضطراب ، لان بعض الراقصين لم يكونوا على

مستوى الكفاءة المطلوبة . وظللنا ثابتين في مكاننا ، متيحين بذلك للآخرين ان ينهكوا قواهم ، وما ان انسحب الراقصون الفعل ، حتى اندمجنا نحن الاثنان في الرقص ، وصمدنا حتى النهاية ، نحن وراقصان آخران ، هما اندران وشريكته ، ولم ارقص في حياتي كلها بمثل الخفة التي رقصت بها تلك المرة ، حتى لقد خلت انني لست من ابناء الفناء ، وانا اضم أحب مخلوقات الله بين ذراعي . واطير بها في سرعة الرياح ، الى ان غابت جميع الاشياء عن ناظري . ولقد آليت في تلك اللحظة على نفسي انه ما من فتاة احبها ، او اكن لها ادنى ارتباط وتعلق ، ينبغي ان ادعها ترقص الفالس مع احد سواي ، ولو ركبت في سبيل ذلك اصعب الاهوال ! وفي يقيني انك تفهم شعوري هذا .

ودرنا في القاعة عدة دورات لنسترد انفاسنا ، ثم جلست شارلوت ، وانتعشت بما تناولته من برتقال كنت قد جنبته معي ، ومع كل «فص» كانت تعرضه – تأدبا – على جيرانها ، كنت اشعر وكأن خنجرا يغوص في قلبي .

وكنا ثاني راقصين في الرقصة الريفية الثالثة ، وفيما نحن متجهان الى الحلبة (والله اعلم بأي نشوة كنت انظر الى ذراعيها وعينيها اللامعتين بأحلى مشاعر المتعة الصادقة الصافية) مررنا بسيدة كنت قد لاحظت ملاحتها ، مع انها لم تعد شابة . ونظرت هذه السيدة الى شارلوت باسمة ، ورفعت في الهواء سبابتها وحركتها في ايماءة تحذير ، وكررت مثنى بلهجة ذات مغزى اسم «البرت» ، فقلت لشارلوت :

– ومن البرت ، اذا لم يكن في سؤالي هذا تطفل ؟

وهمت بالجواب ، عندما وجب علينا ان نفترق كي نعبر عن شكل معين من اشكال الرقصة . ولما مر كل منا مرة اخرى بازاء الاخر لاحظت انها تبدو شاردة الذهن الى حد ما ، وقالت وهي تمد لي يدها لمصاحبة خطواتي :

– ولماذا اخفي عنك هذا الامر ؟ البرت رجل فاضل ، وانا مخطوبة له .

ولم يكن شيء من هذا النبأ مجهولا لدي (لان السيدتين كانتا قد اخبرتاني به ونحن في الطريق الى بيتها) ، ومع هذا بدا النبأ وكأنه جديد تماما ، فأنا لم أفكر فيه من قبل على انه متعلق بتلك التي امسيت – في فترة وجيزة جدا من الزمان – شديد التقدير والاعزاز لها . واستولى علي الاضطراب ، وخرجت على نظام الرقصة وترتيبها ، فنجم عن ذلك اضطراب عام فيها ، بحيث اقتضى الامر كل حضور ذهن شارلوت كي

تصحح لي سياق خطواتي ، بجذبي ودفعي الى مكاني الصحيح .

ولم تكن الرقصة قد بلغت نهايتها بعد عندما اشتد عنفوان البرق الذي كان منذ برهة قد بدأ يلوح عند خط الافق ـ وكنت قد عزوته عن يقين الى اشتداد الحرارة ـ ثم سمع الرعد ، فعلا صوته فوق صوت الموسيقى. ومن شان الفزع او الكدر عندما يفاجئنا وسط استمتاعنا بمسراتنا ان يكون اشد وقعا على نفوسنا في اي وقت اخر ، وتكون حساسيتنا به اشد ، ولعل ذلك راجع الى ان حواسنا عندئذ اكثر تفتحا للانطباعات والمؤثرات ، مما يجعل الصدمة اقوى واشد . واني لأعزو الى ذلك ما اصاب السيدات من ذعر وما صدر عنهن من صرخات ، فاذا باحداهن تجلس في احد الاركان ، وقد جعلت ظهرها الى النافذة ؛ ووضعت اصبعيها في اذنيها ، وركعت سيدة اخرى امامها ، واخفت راسها في حجرها ، والقت سيده ثالثة بنفسها فيما بينهما ، وراحت تحتضن اختها وهي تذرف سيلا من الدموع . واصرت بعضهن على العودة الى بيوتهن . وبدت غيرهن غير واعيات لافعالهن ، واحتجن الى جهد شديد يبذلن في جميع شتات اذهانهن كي يردعن ما تجاسر به شركاؤهن الذين حاولوا تفسير تنهداتهن الجياشة وصرفها الى اشخاصهم منتهزين فرصة الاضطراب الذي عراهن بسبب الاحوال السماوية . اما الرجال فقد نزل نفر منهم ليدخنوا سيجارا في هدوء ، في حين استجاب نفر اخر بكل سرور الى اقتراح المضيفة بالانسحاب الى حجرة اخرى ذات مصاريع خشبية وستائر . ولم نكن ندخلها حتى راحت شارلوت تصف الكراسي وترتبها على شكل دائرة ، ولما اجاب الحاضرون دعوتها اياهم الى الجلوس اقترحت عليهم لعبة تصلح للجلوس على هذه الهيئة .

ولاحظت كيف استعد نفر من هذه الجماعة متوقعين عقابا لطيفا ، عندما قالت شارلوت :

فلنلعب لعبة العدد . والان انتبهوا جيدا ، فسوف ادور حول الحلقة من اليمين الى اليسار ، وعلى كل شخص ان يمضي في العدد ، الواحد منكم تلو الاخر ، على الترتيب الصحيح ، ولا بد ان يتم هذا بسرعة ، ومن يتوقف او يخطىء ، سيلقى ضربة على خده ، وهكذا تمضي اللعبة الى ان يصل العدد الى الالف .

وكان مبهجا ان يرى المرء الحبور والمرح يسودان الجميع ، وقد انطلقت شارلوت تدور حول الحلقة بذراع مرفوعة . وقال الاول «واحد» والتالي له «اثنان» ، والثالث «ثلاثة» ، وهكذا ، الى ان اسرعت شارلوت

خطاها ، واخطأ احدهم ، فهبطت كف شارلوت علـــى صدغه بلطف ، ووسط الضحك الذي أعقب ذلك هبطت صفعة اخرى ، وهكذا ، بمزيد من السرعة . وظفرت انا شخصيا بصفعتين ، وخيل الي انهما كانتا أشد من المعتاد ، فانتابني لذلك سرور عميم ، وتكفل الضحك العام وما صحبه من هرجلة بانهاء اللعبة قبل ان نصل في العدد الى الالف بكثير . وعندئذ انفرط عقد الجماعة الى مجموعات صغيرة ، وكانت العاصفة قد توقفت ، وقمت فتبعت شارلوت الى قاعة الرقص . وفي الطريق الى هناك قالت :

ــ لقد بددت اللعبة ما أثارته العاصفة من الخوف .

ولم اجد ما اقوله ، فاستطردت :

ــ انا شخصيا كنت فزعة كسائرهم ، ولكن باصطناع الشجاعة لكـــي ارفع روح الاخرين المعنوية بسبب مخاوفي.

وتوجهنا الى النافذة ، وكان الرعد لم يزل هادرا عن بعد ، والمطـــر الخفيف يهطل ويملأ الهواء من حولنا بعبير الريف . ومالت شارلوت الى الامام معتمدة على ذراعها ، وجالت بعينيها تذرع المنظر الممتد امامنا ، ثم رفعتهما صوب السماء ، ولم تلبث ان وجهتهما نحوي ، فاذا بهما مخضلتين بالدموع ، ووضعت يدها فوق يدي وقالت :

ــ كلو بستوك !

وعلى الفور تذكرت القصيدة البديعة التي مرت بخاطرها ، وشعرت باني أنوء تحت وقر احساساتي ، فقد كان ذلك اقوى من طاقة احتمالي ، فانحنيت فوق يدها ، وقبلتها بين فيض مدرار من الدمع النشوان ، ثم رفعت نظري الى عينيها . يا لكلوبستوك المقدس ! لماذا لم تر تمجيدك في هاتين العينين ؟ واسمك الطاهر ، الذي طالما اصابه التدنيس ، كم أتمنى لو لم اسمعه تعيد ترديده شفتان !

١٩ يونية :

لم اعد اتذكر اين توقفت في سردي . كل الذي اعرفه ان الساعـــة كانت الثانية صباحا حينما اويت الى فراشي . ولو كنت معـــي لكنت تحدثت اليك بدلا من الكتابة ، وكنت حريا ــ اغلب الظن ــ ان استبقيك يقظانا حتى مطلع النهار !

واعتقد انني لم اقصص عليك بعد ما جرى عندما ركبنا عائدين أدراجنا من المرقص . وليس عندي لهذا الان متسع من الوقت .

لقد كان بزوغ الشمس رائعا ، وقد انتعش الريف كله ، والمطر يقطر نقطة نقطة من اشجار الغابة . وكان رفاقنا في المركبة نياما ، وسألتني شارلوت أفلا احب انا ايضا ان انام ، ورجتني الا أتجسم الكلفة من اجلها ، فنظرت اليها نظرة ثابتة وأجبتها :

ــ ما دمت ارى هاتين العينين مفتوحتين ، فلا سبيل للكرى الى عيني .

وهكذا ظللنا ــ كلانا ــ يقظانين الى ان بلغنا باب دارها الذي فتحته الخادمة بهدوء وخفوت ، واكدت لها ــ ردا على استفساراتها ــ ان والدها والاطفال جميعا بخير ، وما زالوا نياما . وغادرتها ، بعد ان استأذنتها في ان ازورها فى غضون النهار ، فأذنت ، وانصرفت الى داري . ومنذ هذه اللحظة وللشمس والقمر والنجوم ان تمضي في مداراتها ، اما انا فلم اعد اميز الليل من النهار ، لان العالم كله صار في نظري عدما .

٢١ يونية

ايامي حافلة بالسعادة ، كتلك التي اعدها الله لمختاريه ، وايا كان مصيري بعد ذلك ، فلن اقول اني لم أذق طعم الفرح ، كأنقى ما تكون افراح الحياة . وانت تعرف اين موقع فالهايم . وانا الان مستقر هناك تماما . ففي هذه البقعة اجد نفسي على مسافة نصف مرحلة من شارلوت، وهناك اجد المتعة واذوق جميع المباهج التي يمكن ان تكون من نصيب البشر .

وما كنت اتخيل وانا اختار فالهايم لرحلاتي سائرا على قدمي ان السماء بأسرها تقع على مقربة منها . وكم من مرة ، وانا اتجول مبتعدا عن جانب التل ، او عن المراعي عبر النهر ، وقعت عيني على كوخ الصيد هذا ، الذي يضم تحت سقفه كل أفراح قلبي !

وكم من مرة ــ يا عزيزي ــ فلهلم ــ تفكرت في تلهف البشر على التجوال والوقوع على اكتشافات جديدة ، وفى الدافع الخفي الذي يحدوهم بعد ذلك للعودة الى دائرتهم الضيقة ، وفقا لقوانين العادة ، غير معنيين انفسهم اكثر من هذا بما يدور من حولهم .

وانه لمن الغريب انني عندما قدمت الى هنا اول مرة ونظرت الى الوادي الجميل من جانب التل ، شعرت بالافتتان بكل ذلك المنظر المحدق بي .. كانت الغابة الصغيرة قبالتي ــ وما كان اجمل ان يجلس المرء تحت

ظلها ! وما كان ابهى المنظر من هذا الموقع الصخري ! ثم هناك سلسلة التلال ، وتلك الوديان البديعة الجاثمة عند اقدامها ! ليتني اجوبها انسى نفسي بينها ! وذهبت اليها ، وعدت منها من غير ان اجد فيها ما ذهبت انشده . فالأبعاد والمسافات يا صديقي مثل المستقبل ، فالامتداد الغامض يترامى امام أرواحنا ، مدارك عقولنا لا تقل غموضا عن مدارك ابصارنا ، ونحن نتوق بكل صدق ان نسلم لها كياننا كله ، كي يمتلىء بالغبطة الكاملة التامة التي يفيضها علينا شعور واحد باهر . ولكن وا أسفاه ؟ عندما نبلغ مقصودنا ويتحول ما كان بعيدا «هناك» ، الى ما هو حاضر «هنا» ، اذا بكل شيء وقد تغير ، واذا بنا على ما كنا فيه من فاقة وضيق ، واذا أرواحنا لهفانة متعطشة لم نزل الى السعادة التي لا تنال .

وهكذا يحن الرحالة الذي لا يقر له قرار الى ثري مسقط راسه ، ويجد في كوخه ، وبين ذراعي زوجته ، وفي حنان اطفاله ، وفي الكدح الضروري لاعالتهم تلك السعادة التي ظل ينشدها عبثا في طول الدنيا وعرضها .

عندما اذهب في الصباح ، مع طلوع الشمس ، الى فالهايم ، وبيدي اجمع من الحديقة البازلاء التي ستكون عشائي ، وعندما اجلس لاقشرها، وعندما اقرا هوميروس فيما بين ذلك كله ، ثم اختار من المطبخ مقلاة ، وأحضر زبدي ، واضع على النار المقلاة وفيها مطلوبي للطعام . واغطيها ، ثم اجلس ، واقبلها كلما احتاجت الى التقليب ــ حينئذ ارى بعين خيالي خاطبي بنيلوبي الامجاد ، وهم يذبحون ويتبلون ويعدون ثيرانهم وخنازيرهم بأيديهم . وما من شيء يملؤني بسعادة أصدق وانقى من تأمل سمات هذه الحياة الغابرة التي استطيع ــ شكرا للسماء !ــ ان أحاكيها بلا تكلف او تعمل . وما اسعدني ان يكون قلبي قادرا على الاحساس بعين تلك اللذة البريئة البسيطة التي يحسها الفلاح الذي تحفل مائدته بأغذية من نتاج زراعته وتربيته ، فلا يستمتع بطعامه فحسب ، بل يتذكر بتلذذ في الوقت نفسه ايضا الامسيات السعيدة التي قضاها في سقيه واستنباته ، والايام التي راقب فيها بحبور نماءه شيئا فشيئا .

٢٩ يوليو

امس الاول حضر الطبيب من البلدة ليزور القاضي ، فوجدني على الارض الاعب اطفال شارلوت ، وكان بعضهم قد تكاثروا علي ، والاخرون

مرحون معي ، وانا امسكهم أدغدغهم ، فتصدر عنهم جلبة عالية . وهذا لطبيب شخص من المتمسكين بالرسميات ، ولذا فهو مشغول دائما بتسوية طيات ثيابه واهدابها وهو يتحدث اليك ، ولذا خال مسلكي هذا مسيئا الى المكانة والكرامة الواجبة للرجل العاقل الرزين . وقد قرات هذا على سحنته ، ولكني لم أتجشم لهذا السبب الاقلاع عما انه بسبيله ، بل سمحت له ان يواصل احاديثه بينما انا مشغول باقامة بيوت الاطفال التي يبنونها من الورق المقوى كلما هدموها ، وقد انطلق هذا الطبيب في أرجاء البلدة بعد ذلك مرددا ان اطفال القاضي ، كانوا مدللين بما فيه الكفاية قبل ذلك ، اما الان فها هو فيرتر يفسدهم تمام الافساد .

اجل يا عزيزي فلهلم ، ما من شيء على وجه البسيطة يؤثر في فؤادي مثلما يؤثر فيه الاطفال . وعندما انظر الى افاعيلهم ، وارى في هذه المخلوقات الصغيرة بذور جميع الفضائل والمزايا التي سيجدونها ذات يوم شيئا لا غنى عنه ، وعندما ألمح في العنيد منهم كل الجزم الذي يتحلى به في المستقبل الطبع النبيل ، وعندما ألمح في النزق منهم الخفة والمرح اللذين يساعدان فيما بعد على تحمل متاعب الحياة ، وعندما اتبين صفاء طبيعتهم البسيطة النقية ، عندئذ اتذكر القول الذهبي الذي ارسله معلم البشرية العظيم : «ما لم تصيروا مثل واحد من هؤلاء ...»

ولكننا يا صديقي نعامل هؤلاء الاطفال — وهم أندادنا الذين ينبغي ان نعدهم قدوة لنا — نعاملهم كما لو كانوا رعايا ، فلا نسمح لهم بارادة خاصة بهم ، او ليست لنا نحن ارادة ؟ فمن اين استمددنا حقنا الاستبدادي ؟ الا اننا اسن منهم واكبر واكثر خبرة ؟ الله اكبر ! انك ترى الكل من علياء سمائك اطفالا كبارا وأطفالا صغارا ، ولا زيادة . المسيح قد بيّن منذ زمن بعيد اي الفريقين مصدر المسرة الاعظم . ولكن الناس يؤمنون به ولا يصغون له . وهذه ايضا قصة قديمة ، ولذا فهم يربون اطفالهم على صورتهم .

وداعا يا فلهلم ، فلست اريد ان أزعج نفسي بهذا الموضوع اكثر من هذا .

اول يوليو

في وسعي ان اعرف من تجربة قلبي مدى العزاء الذي تستطيع

شارلوت أن تمنحه لمريض ، فقلبي يعاني من بعادها او غيبتها اكثر مما يعانيه كثير من المساكين الذين يلزمهم المرض الفراش ، فقد رحلت شارلوت لقضاء بضعة ايام في البلدة مع امراة فاضلة جدا نفض الاطباء ايديهم منها ، فتمنت هذه السيدة ان تكون شارلوت بجوارها في لحظاتها الاخيرة . وقد صحبتها في الاسبوع الماضي في زيارة لقس قرية س. وهي قرية صغيرة في الجبل ، على مسافة نحو مرحلة من هنا . وقد وصلنا الى هناك في الساعة الرابعة ، وقد صحبت شارلوت اختها الصغيرة . ولما دخلنا فناء بيت القس ، وجدنا الرجل المسن الطيب جالسا على مقعد خشبي امام الباب ، في ظل شجرتي لوز كبيرتين . وما ان ابصر شارلوت قادمة حتى بدا وكأنما دبت فيه حياة جديدة ، فنهض ، ونسي عصاه ، وغامر بالسير اليها ، فجرت نحوه ، وحملته على الجلوس كما كان ، ثم جلست بجواره ، وابلغته رسائل من ابيها ، ثم لمحت اصغر اطفاله ــ وهو مخلوق صغير قذر قبيح الشكل هو قره عين شيخوخته ــ فقبلته . واتمنى لو تسنى لك ان ترقب اعتناءها بهذا الشيخ ، وكيف كانت ترفع صوتها مراعاة لصممه ، وكيف جعلت تحدثه عن الشباب الأصحاء الذين غالهم الموت فجاة ، وعلى غير توقع ، وكيف اطرت مزايا كارلسباد ، وايدت اعتزامه قضاء الصيف القادم هناك ، وكيف أكدت له انه يبدو افضل واقوى مما راته في المرة السابقة . وكنت انا في تلك الاثناء أوجه عنايتي الى زوجته الطيبة . وبدا الشيخ في حالة معنوية طيبة ، ولما لم اتمالك نفسي من الاعجاب بجمال شجرتي اللوز بظلهما اللطيف المستحب فوق رءوسنا ، شرع ــ في شيء من الصعوبة ــ يحدثنا بتاريخهما ، فقال :

ــ أما كبراهما فلا ندري من غرسها ، فالبعض يعزون ذلك الى هذا القس ، والبعض الاخر يعزونها الى سواه ، اما صغراهما ، التي نراها من خلفنا ، فعمرها بالضبط مثل عمر زوجتي . . اي انها ستبلغ الخمسين في اكتوبر القادم ، لان والدها غرسها ذات صباح ، وفي المساء جاءت هي الى الدنيا . فقد كان ابوها سلفي في هذا المنصب ، ولا يسعني ان اخبرك كم كان شغوفا بهذه الشجرة ، ولها عندي مثل هذا الاعزاز ايضا . ففي ظل هذه الشجرة بعينها ، فوق كتلة من الخشب ، كانت زوجتي جالسة تحيك الصوف عندما دخلت هذا الفناء وانا طالب فقير لاول مرة ، منذ سبع وعشرين سنة بالضبط .

استفسرت شارلوت عن ابنته ، فقال انها ذهبت مع الهر شميدت الى المراعي - وانها الان مع حاصدي العشب ، ثم استأنف الشيخ حكايته ، فاخبرنا كيف وجد هوى في قلب سلفه ، وكذلك ايضا بالنسبة لابنته ، وهكذا صار اولا «خورية» (الكاهن المساعد ثم خلفه فيما بعد .

ولم يكد يتم حكايته هذه حتى عادت ابنته عن طريق الحديقة ، وفي صحبتها الهر شميدت المذكور آنفا ، فرحبت بشارلوت ترحيبا حارا . واعترف انني اخذت شخصيا الى حد كبير بمنظرها ، فهي سمراء يـدل شكلها على الحيوية والمزاج المرح ، من ذلك الطراز الكفيل تماما بتسلية المرء فترة وجيزة وهو في الريف . وعاشقها (لان الهر شميدت هكذا بدا بوضوح) شخص مهذب ، متحفظ ، لم يشأ ان يشترك في محادثتنا برغم كل محاولات شارلوت لاستدراجه الى الاشتراك معنا . وقد ضايقني كثيرا عند ملاحظة سحنته ان هذا الصمت لم يكن مبعثه الافتقار الى الموهبة، بل النزوه واعتلال المزاج . وقد غدا ذلك واضحا اشد الوضوح عندما شرعنا في نزهة على الأقدام ، وقد صحبت فيها «فردريكا» شارلوت ، وكنت احادث في الطريق فردريكا ، فاذا وجه هذا الرجل الفاضل ــ الذي كان بطبيعته متجهما ــ وقد اربد وعلاه الغضب الشديد ، حتى ان شارلوت اضطرت للمس ذراعي كي تذكرني بأني افرطت في التحدث الى فردريكا . وما من شيء يعذبني مثلما يعذبني ان ارى البشر يعـذب بعضهم بعضا ، ولاسيما عندما اجدهم في زهرة اعمارهم ، أو ان بهجتهم وسرورهم يضيعون ايام اشراقهم المعدودات في منازعات ومشاحنات ، ولا يفطنون الى خطئهم الا بعد فوات اوان كل اصلاح لحالهم . وكم ثقلت هذه الفكرة على خاطري . وفي المساء عندما عدنا الى منزل القس وجلسنا حول المائدة وامامنا الخبز واللبن ، دار الحديث حول افراح الحياة واحزانها ، فلم أستطع مقاومة الانحاء بالتنديد الشديد على سرعة الغضب وحـدة المزاج، فقلت :

ــ اننا ميالون للشكوى والتذمر . ان ايام سعادتنا قليلة وايام تعاستنا كثيرة ، فلو ان قلوبنا كانت متأهبة باستمرار لتلقي النعم التي تنعطف بها السماء علينا لتسنى لنا ان نكتسب القوة الكفيلة بتحمل الشرور والبلايا عندما يأتي اوانها .

فقالت زوجة القس عندئذ :

ــ ولكن ليس في استطاعتنا دائما ان نأمر مزاجنا او طبعنا فينقـاد لنا . فما اكثر ما يتوقف ذلك على تكويننا البدني ، فعندما يعاني الجسد،

لا بد ان تضطرب النفس ويعتل الخاطر .

فأجبتها :

ـ اجل اني اعترف بوجاهة هذا القول ، ولكن علينا ان نمحص هذا الميل الى التذمر وحدة الطبع في ضوء معرفتنا بالامراض ، ونتساءل اليس ثمة من دواء لهذا .

فقالت شارلوت :

ـ انه ليسرني ان اسمع بعلاج من هذا القبيل ، فأنا على الاقل اعتقد ان الكثير يتوقف علينا شخصيا ، فهكذا الحال فيما يتعلق بي . فعندما يحزنني (يضايقني) شيء ما ، ويعكر مزاجي ، اسرع الى الحديقة ، وادندن بنغمتين من اهازيج الرقص الريفي ، فيستقيم حال مزاجي على الفور .

فقلت :

ـ وهذا ما عنيته انا . فحدة الطبع ، مثلها مثل التراخي او الكسل، طبيعة فينا ، ولكن متى واتتنا الشجاعة مرة واحدة على مواجهة انفسنا وحملها على غير هذه الخطة ، وجدنا الامور تستقيم لنا ، وشعرنا بالسرور لما استطعنا بعد ان كنا محجمين امامه .

وكانت فردريكا تصغي لهذا الحديث بانتباه شديد ، اما الشاب فاعترض بأننا لسنا سادة انفسنا ، ولا سلطان لنا على طباعنا ، ومن باب اولي لا سلطان لنا على مشاعرنا . فقلت له :

ـ ان الامر هنا متعلق بشعور غير مستحب ينبغي على كل منا ان يتخلص منه ، ثم انه ما من احد يدرك مدى سلطانه على نفسه ومشاعره الا بالمحاولة . والمرضى يسرهم ان يستشيروا الاطباء ، ويخضعون لتعليماتهم الصارمة غاية الصرامة ، ويتعاطون ادويتهم المغثية ، كي يستردوا عافيتهم .

ولاحظت ان الشيخ الطيب كان يفضي براسه ويجهد نفسه في الاصغاء لكلامنا ، ولذا رفعت صوتي ، ووجهت كلامي مباشرة اليه :

ـ اننا نندد بالكثير جدا من الجرائم في عظاتنا ولكنني لا اذكر موعظة واحدة وجهت ضد حدة الطبع او اعتلال المزاج .

فقال القسيس الشيخ :

ـ قد يكون هذا سائغا جدا لكهنة المدن عندكم ، اما اهل الريف فلا يعانون مطلقا من حدة المزاج ، وان كان ذلك قد يفيد احيانا ... كما في حالة زوجتي ، وفي حالة القاضي ، مثلا ...

وضحكنا جميعا ، بما فينا القسيس ، من كل قلوبنا ، الى ان أسلمه ذلك الى نوبة سعال ، قطعت سياق حديثنا برهة . وعاد الهر شميدت الموضوع قائلا :

ـ انك تسمي حدة الطبع جريمة ، ولكني أعتقد انك ها هنا تستخدم لفظا مفرطا في الشدة .

فأجبته :

ـ اطلاقا . فهي شيء اشد ما يكون ضررا لذواتنا ولجيراننا ، أليس حسبنا ان نفتقد الى القوة التي تجعل كلامنا يسعد الاخر ، فهل لا بد لنا ايضا ان يحرم كل منا صاحبه من المسرة التي نستطيع جميعا ان نستحدثها لانفسنا ؟ أرني الرجل القادر على اخفاء حدة طبعه ، ويتحمل العبء كله منفردا من غير ان يكدر صفو المحيطين به . كلا . بل حدة الطبع تنشأ عن شعور داخلي بافتقارنا الى الفضل او المزية ، وعن سخط يقترن دائما بالحسد او الغيرة التي يولدها الغرور الاحمق ، اذ نرى اناسا سعداء لسنا نحن مصدر سعادتهم ، فلا نطيق هذا المشهد !

فنظرت شارلوت نحوي وعلى وجهها ابتسامة ، ولاحظت الانفعال الذي يصطبغ به حديثي ، وحفزتني دمعة في عين فردريكا ان أمضي في كلامي، فقلت :

ـ ويل لاولئك الذين يستخدمون سلطانهم على قلب بشري ليدمروا تلك المباهج البسيطة التي ينعم بها هذا القلب تنعما طبيعيا ! فجميع ما يمكن ان نقدم بعد ذلك من الوان التلطف والرعاية لا يمكن ان يعوض هذا القلب عن تلك السعادة التي دمرها ذلك الطغيان القاسي !

وكان قلبي مفعما وانا اتدفق بهذا الكلام ، فقد تواردت على خاطري ذكرى أمور كثيرة جرت فيما مضى ، فملأت عيني بالدموع ، وهتفت :

ـ ينبغي ان نكرر لانفسنا كل يوم اننا ينبغي الا نتدخل في شئون اصدقائنا ، اللهم الا لكي نتركهم خالين الى مباهجهم الخاصة ، ما لم نكن قادرين على مشاركتهم اياها ! اما اذا تناوشت افئدتهم انواع من الاحزان والعذاب ، أفلا ينبغي علينا ان نبسط اليهم يد العون ولو بأيسر العزاء ؟ وعندما يستولي المرض الاخير القاتل على المخلوقة التي عليك القدر ان تعد لها لحدها قبل الاوان وتراها راقدة امام عينيك شاحبة منهوكة القوى ، وقد اتجهت عيناها الكابيتان الى السماء ورطوبة المنون تزحف على جبينها الذاوي ـ عندئذ تقف الى جوار سريرها كالمجرم المدان ، ويتملكك الاحساس المرير بأن كل ما في يديك من ثروة لا تستطيع ان تستنقذها ،

ويعصر هذا الخاطر قلبك ، لان كل ما أوتيت من طاقة لن يتيسح لك ان تمدها بلحظة قوة واحدة في ساعة الرحيل ، ولا بلمحة عزاء واحدة عابرة وهي تودع الدنيا .

وفي هذه اللحظة انهالت على خاطري ذكرى منظر مماثل كنت قد شهدته ذات مرة ، فدفنت وجهي في منديلي ، واسرعت منطلقا من الحجرة ، ولم يردني الى جأشي الا صوت شارلوت التي ذكرتني انه آن وقت العودة .

وبأي رقة عذلتني ونحن في الطريق الى بيتها لفرط اهتمامي وانفعالي بكل امر يعرض لي ! وقالت لي ان ذلك خليق ان يلحق بي الضرر ، وأنه ينبغي لي ان اخفف على نفسي . اجل يا ملاكي ! سأصنع هذا لاجلك .

٦ يوليو

انها لم تزل مع صديقتها التي تحتضر . ولم تزل ابضا هي بعينها ذلك المخلوق المشرق الجميل الذي يخفف محضره الآلام ، ويفيض السعادة فيما حوله أينما توجه . وقد خرجت بالامس مع شقيقاتها الصغيرات ، عرفت هذا وخرجت لملاقاتهن ، ومشينا معا ، ثم عدنا الى البلدة بعد نحو ساعة ونصف . ووقفنا عند النبع الذي أولعت به ، والذي صار الان أحب الي الف مرة من ذي قبل . وقد جلست شارلوت فوق الجدار المنخفض ، وتجمعنا حولها . ونظرت حولي وتذكرت الوقت الذي كان قلبي فيه خليا ليس فيه من يشغله ، وقلت :

ـ ايها النبع العزيز الغالي : منذ ذلك الحين لم اعد الم بك ، ولم آت لاستمتع بالراحة الندية بقرب جدولك الصافي ، بل كنت امر بك في خطوات غير مبالية ، وقلما أعرتك نظرة .

ونظرت الى اسفل فأبصرت شقيقة شارلوت الصغيرة «جان» ، قادمة تصعد الدرجات المفضية الينا وفي يدها كوب ماء ، فالتفت الى شارلوت وشعرت بتاثيرها ونفوذها علي . وكانت «جان» في هذه اللحظة قد اقتربت بكوب الماء في يدها ، وأرادت اختها «ماريان» ان تأخذه منها فصاحت الطفلة باعذب تعبير :

ـ كلا ! بل يجب ان تشرب شارلوت اولا !

وسحرني الاعزاز والبساطة اللذين نطقت بهما هذه الكلمات ، حتى انني حاولت ان اعبر عن شعوري بالامساك بالطفلة ، ورفعها الي ، وتقبيلها

بحرارة ، فذعرت وانشأت تبكي . وقالت شارلوت :
ـ ينبغي الا تصنع هذا .
وشعرت انا بالارتباك ، واردفت شارلوت ، وهي تتناول يد الطفلة وتقودها هابطة الدرج مرة اخرى :
ـ تعالي يا جان .. لا ضير . اغتسلي بسرعة بالماء العذب .
ووقفت انا ارقبها ، ورايت العزيزة الصغيرة كيف تحك خديها بيديها المبللتين ، اعتقادا منها ان كل الرجس الذي انتقل اليها من لحيتي القبيحة سوف يغسله عنها الماء السحري . وكيف انها أمعنت في ذلك بكل قوتها مع ان شارلوت قالت لها «حسبك !» ، وكأنها تعتقد ان الافراط في ذلك خير من التفريط ، وعندئذ ـ اؤكد لك ـ لم اشعر للعماد المقدس باجلال مثل الذي شعرت به عندئذ ، ولما صعدت شارلوت من النبع اوشكت ان اركع امامها .

وفى المساء لم استطع ان اغالب نفسي فرويت القصة لشخص كنت احسبه على شيء من التصور الطبيعي ، لانه من اهل الفهم والفطنة ، ولكن تبين لي مدى خطأي ! فقد زعم ان شارلوت ارتكبت خطأ كبيرا ، وانه ما كان ينبغي لها ان تخدع الاطفال ، وان مثل هذه الامور تسبب اخطاء وخزعبلات لا حصر لها . وعندئذ خطر لي ان هذا الرجل لم يتم عماده الا منذ اسبوع واحد ، ولهذا لم أستطرد في الحديث معه في هذا الموضوع ، ولكني احتفظت لنفسي ، باعتقادي في صواب قناعتي ، وانه ينبغي لنا ان نتعامل مع الاطفال على نحو ما يتعامل الله معنا .. واننا أسعد حالا ونحن واقعون تحت تأثير الاوهام البريئة الساذجة .

٨ يوليو

يا للرجل من طفل : اذ يبتهل ويتضرع من اجل نظرة يتلهف عليها ! يا للرجل من طفل حقا ! فقد ذهبنا الى فالهايم : ذهبت السيدات في عربة ، واثناء مسيرنا ظننت اني رايت في عيني شارلوت السوداوين ـ واني لغر ـ ولكن اغفر لي هذا ! فلا بد لك ان تراهما ـ هاتين العينين . ولاختصر القول (الان اجفاني مثقلة بالنعاس) فأذكر ان السيدات عندما ركبن عربتهن مرة اخرى ، كان الشاب و. سلدستات ، واندران ، وانا ، واقفين قرب الباب . وكانت المجموعة المرحة تضحك ويمازح بعضها بعضا . وراقبت عيني شارلوت ، وكانتا تتنقلان من الواحد الى الاخر ، ولكنهما لم

تقعا علي ــ علي انا الواقف هناك ساكنا بلا حراك لا يرى شيئا سواها ! واقراها قلبي سلام الوداع الف مرة ، ولكنها لم تلحظ وجودي قط . وانطلقت العربة ، وامتلأت عيناي بالدموع . ونظرت في اثرها ، وفجأة رايت قلنسوة شارلوت تنحني خارج النافذة ، والتفتت لتنظر خلفها ــ اكان نظرها موجها الي انا ؟.. لست ادري يا صديقي . وفي هذا الشك اجد عزائي . فلعلها التفتت وراءها كي تراني . لعلها ! طابت ليلتك . ويا لي من طفل !

١٠ يوليو

ليتك ترى كيف ابدو نمرا وأنا وسط جماعة يرد فيها ذكر اسمها ، ولاسيما اذا ما سئلت ببساطة عن رايي فيها . يسالونني عن رايي فيها ! لكم اكره هذا التعبير .. وأي مخلوق هذا الذي يكتفي باستلطاف شارلوت ولا يذوب قلبه كله وحواسه كلها فيها كل الذوبان ؟ استلطفها ؟ لقد سألني بعض الناس اخيرا عن مدى استلطافي «أوسيان» (١) .

١١ يوليو

مدام م ــ مريضة جدا . وانا ابتهل الى الله ان يشفيها، لان شارلوت تقاسمني آلامي .وارها احيانا في بيت صديقي ، وقد قالت لي اليوم أعجب شيء . فالشيخ م ــ رجل بخيل مقتر كثير الاشتهاء لما في يد غيره ، وقد نكد حياة السيدة المسكينة زوجته ؛ بيد انها تحملت متاعبها وبلاياها في صبر . ولما انبأنا الطبيب منذ بضعة ايام ان شفاءها ميئوس منه . ارسلت السيدة الى زوجها (وكانت شارلوت حاضرة) وخاطبته قائلة:

ــ عندي ما أعترف لك به ، وهو امر ربما أحدث بعد وفاتي بلبلة واضطرابا . فقد اسست بيت ودبرته حتى الان بأقصى ما وسعني من التقشف والاقتصاد . ولكن يجب عليك ان تغفر لي انني غششتك على مدى ثلاثين عاما : ففي بداية حياتنا الزوجية قررت لي مبلغا صغيرا

---

١ ــ «اوسيان» محارب وشاعر ايرلندي أسطوري «المترجم» .

لاحتياجات المطبخ وما الى ذلك من نفقات البيت . ولما نمت مؤسستنا ، واتسعت املاكنا عجزت عن اقناعك بزيادة الاعتماد الاسبوعي بما يتناسب مع ذلك . وقصارى القول انك ــ كما تعلم ــ ابيت حينما بلغت احتياجاتنا ذروتها الا ان اتكفل بكل شيء في حدود سبعة فلورينات في الاسبوع ، فكنت آخذ النقود منك بدون ان تشعر ، بحيث كنت استعيض نقص الاعتماد من خزانة نقودك ، لانه ما من احد يمكن ان يخطر له ان زوجتك تسرق خزانة الدار ، ولكني لم انفق شيئا هدرا ، وكنت خليقة ان القى الديان يوم الحساب من غير ان ادلي لك بهذا الاعتراف ، لولا انني اريد للتي ستدير بيتك بعد وفاتي ان تتحرر من الحرج بالحاحك واصرارك على ان الاعتماد المسموح به لزوجتك السابقة كاف لجميع النفقات .

وتحدثت مع شارلوت عن مبلغ ما يتردى فيه بعض الرجال من العمى ، الى حد لا يمكن تصوره . وكيف يمكن لاي شخص الا يشك في وجود خديعة من نوع ما اذا كان كل ما يسمح به سبعة فلورينات لسد احتياجات تحتاج الى ضعف هذا المبلغ . ولكني عرفت شخصيا اناسا كانوا يعتقدون ــ وبدون دهشة ظاهرة للعيان ــ ان بيوتهم تنعم بالبركة التي تشبه معجزات الانبياء .

١٢ يوليو

كلا ! لست مخدوعا . ففي عينيها السوداوين قرات اهتماما حقيقيا اصيلا بي وبأحوالي . أجل اني لاشعر بهذا ، ولي ان اصدق قلبي الذي ينبئني ــ ترى هل أجسر على قولها ؟ اأتجاسر على التفوه بالالفاظ المقدسة ؟ ــ انها تحبني !

انها تحبني ! لكم ترفع هذه الفكرة من قدري وتسمو بي الى عين نفسي ! ولما كنت تفهم مشاعري يا صديقي ، ففي وسعي ان اقول لك كم ابجل نفسي منذ احبتني !

فهل هذا محض افتراض او ظن ؟ ام هو وعي بالحق الصراح ؟ لست اعرف رجلا يمكن ان يحل محلي ويستأصلني من قلب شارلوت ، ومع هذا اشعر عندما تتحدث عن خطيبها بكل هذه الحرارة والاعزاز وكأنني جندي جردوه من ألقابه ورتبه ونياشينه وسيفه !

١٦ يوليو

الا كم يخفق قلبي عندما أمس اصبعها عن غير عمد ، او تلتقي قدماي بقدميها تحت المائدة ! عندئذ أتراجع وكأنما لمست أتونا محمى ! بيد ان قوة خفية تجبرني على الاقدام من جديد ، وتمسي حواسي نهبا للاضطراب . ان قلبها البريء غير الواعي لم يعرف قط اي عذاب ممض توقعه بي هذه المخالطة اليسيرة ، فيحدث احيانا ، وهي تحدثني ، ان تضع يدها على يدي ، وفي حميا الحديث تقترب مني على سجيتها ، فتهب أنفاسها العبقة على شفتي ، فأحس وكأن صاعقة اصابتني ، حتى لأوشك ان اغوص في الارض . ومع هذا يا فلهلم ، وفي اطار هذه الثقة العلوية او انني أعرف نفسي ، وتجاسرت اطلاقا ــ انت تفهم طبعا ما أريد ان اقول . ولكن كلا ! كلا ! ففؤادي ليس فاسدا الى هذا الحد ــ اجل انه ضعيف ، ضعيف جدا ــ ولكن اليس هذا درجة من درجات الفساد ؟

انها في نظري كائن مقدس . وكل اندفاع عاطفي يسكن في حضرتها ولا أملك ان اعبر عن احساساتي عندما اكون بقربها . بل اشعر ان روحي تخفق فى كل عصب من أعصاب جسدي . وثمة مقطوعة تحسن عزفها على البيانو بابداع ملائكي ــ مقطوعة بالغة البساطة ، ولكنها مع هذا بالغة الروحانية ! وهي معزوفتها المفضلة ، وعندما تعزف النغمة الاولى يزايلني كل احساس بالالم والهم والاسى في طرفة عين .

اني مؤمن بكل كلمة قيلت عن سحر الموسيقى القديمة . الا كم تسحرني اغنيتها البسطة ! ويحدث احيانا ، وانا على اهبة الاقدام على الانتحار ، ان تغني تلك المقطوعة ، وعلى الفور يختفى الوجوم والجنون المخيمين على وجداني ، واتنفس بكل راحة وطلاقة مرة اخرى .

١٨ يوليو

فلهلم ! ما الدنيا لدى افئدتنا بدون الحب ؟ ما الفانوس السحري بدون الضوء ؟ ما عليك الا ان تضيء الشعلة بداخله حتى تشرق على الجدار الابيض ابهى الصور والاشكال . ولئن كان الحب يرينا ظلالا عابرة فحسب، الا اننا نشعر مع هذا بالسعادة عندما نراها ــ كالاطفال الصغار ــ فتخف بنا الاشباح البديعة وتطير بنا كل مطار .

لم يتيسر لي اليوم ان ارى شارلوت ، اذ عاقتني عن ذلك صحبة

جماعة لم استطع منها فكاكا . وماذا كنت عسيا ان اصنع ؟ لقد ارسلت خادمتي الى بيتها ، كي يتسنى لي على الاقل ان ارى اليوم احدا نعم بقربها وحدث ولا حرج عن نفاد صبري وأنا انتظر اوبته ، وعن الفرح الذي تلقيته به ! لقد اوشكت ان أضمه بين ذراعي واقبله ، لولا ان الحياء تملكني .

يقال ان حجر «البونونا» اذا ما وضع في الشمس اجتذب الاشعة ، ولذلك يبدو مضيئا في الظلام برهة من الوقت . وهكذا كان الحال معي في شأن هذا الخادم . فان مجرد تفكيري ان عيني شارلوت استقرتا على سحنته ، وعلى خده ، بل وعلى زيه ، قد جعل هذا كله يبدو لي عزيزا عظيم القيمة ، حتى انني ما كنت لأرضى التفريط فيه عندئذ ولو مقابل الف كراون . مجرد حضوره اسعدني ايما سعادة ! وحذار ان تضحك مني يا فلهلم ! ترى أمن الممكن ان يكون ما يسعدنا الى هذا الحد مجرد وهم ؟

١٩ يوليو

عندما استيقظ في بكرة الصباح ، وأتطلع بقلب جذلان الى الشمس المشرقة الجميلة ، أهتف بحبور :

ـــ سأراها اليوم ! اليوم سأراها !

ثم لا تخالجني اي رغبة اخرى ، فكل شيء متضمن في هذه الخاطرة.

٢٠ يوليو

لا يسعني ان اوافق على اقتراحك ان اصحب السفير الى ... فأنا لا أحب الخضوع او التبعية ، ونحن جميعا نعلم انه شخص فظ غير مستحب العشرة . وتقول ان امي تود لي ان أستخدم ، ولم اتمالك نفسي من الضحك من هذا الراي . او ليس عندي من الشغل ما يكفيني ؟ او لا يستوي في الواقع ان اقشر البازلاء او أحصي حبات العدس ؟ ان العالم ينتقل من حماقة الى حماقة ، والمرء الذي يكدح لجمع المال او الالقاب التشريف او اي شبح اخر ـــ لا لشيء الا مراعاة لرأي الاخرين ، وبغير ضرورة او رغبة خاصة به ـــ ان هو الا أحمق او غر !

٢٤ يوليو

اراك تلح كثيرا جدا في اصرارك اني أهمل رسومي ، بحيث يستوي عندي ان الزم الصمت وان اعترف بقلة ما رسمته في المدة الاخيرة .
واراني لم أشعر في اي وقت انني اسعد مما انا الان ، ولم أفهم الطبيعة خيرا مما أفهمها الان ، حتى اهون ورقة من اوراق العشب ، وايسر نبتة باثقة ، ومع هذا اراني عاجزا عن التعبير عن نفسي ، فقدراتي على التنفيذ امست واهنة جدا ، وكل شيء كأنه يسبح ويطفو امامي ، بحيث يعجزني ان اخط خطا واضحا جريئا . ولكن احسبني خليقا ان احرز نجاحا اكبر لو انصرفت الى تشكيل الصلصال او الشمع . وساحاول ــ اذا كتب لحالتي النفسية هذه ان تستمر امدا اطول ــ ان اتجه الى التشكيل ، ولو افضى ذلك مني ان اعجن الدقيق .
لقد شرعت في رسم صورة شارلوت ثلاث مرات ، وفي جميع هذه المرات كللت هامتي بالخزي ! وهذا ادعى لضيقي ، لانه كان يسعدني من قبل غاية السعادة ان أرسم الوجوه . وقد خططت منذ ذلك الحين شكلها الجانبي ، ولا مفر لي من الاكتفاء بهذا .

٢٥ يوليو

اجل يا عزيزتي شارلوت ! سأرتب كل شيء ، وما عليك الا ان تكلفيني بمزيد من المهام ، وكلما كثرت المهام كان ذلك افضل . ولكن لا بد لي من ملتمس واحد : لا تستخدمي الرمل لتجفيف السطور الغالية التي تكتبينها الي ، فاليوم سارعت برفع رسالتك الى شفتي ، فضرست بالرمل .

٢٦ يوليو

كثيرا ما قررت الا اراها بهذه الكثرة والتواتر ، ولكن من ذا الذي يملك المثابرة على هذا القرار ؟ ففي كل يوم اتعرض للغواية ، واقطع على نفسي العهد باخلاص انني سأظل في الغداة بعيدا عنها ، ولكن ما ان يحين الغد حتى اجد سببا لا يقاوم للذهاب اليها ، وقبل ان اعي ما اصنع الفي

نفسي معها من جديد . فاما ان تكون قد قالت في العشية :
ــ ساتي غدا عن يقين ..
ومن يراه عندئذ قادرا على ان يظل بعيدا عنها ؟ــ او تكون قد كلفتني بمهمة من اي نوع ؛ فرى من الضروري ان اذهب لأبلغها النتيجة بنفسي. او يكون جو اليوم بديعا فاتمشى الى فلهايم ، وما ان القى نفسي هناك حتى اكتشف انني لا ابعد عنها الا بمقدار نصف مرحلة . فانا اذن داخل دائرة سحرها ، وسرعان ما اجد نفسي بجوارها . وكان من عادة جدتي أن تروي لنا حكاية جبل من حجر المغناطيس ، فاذا ما اقتربت منــه اي سفينة سلبها كل ما فيها من المصنوعات الحديدية ، وكانت المسامير تترك خشب السفينة لتطير الى ذلك الجبل ، وهكذا يهلك جميع بحارتها وسط ذلك الركام من الواح الخشب المفككة .

٣٠ يوليو

لقد جاء «ألبرت» ، ولا مناص لي من الرحيل . فانه لو كان هو خير الرجال وانبلهم ، وكنت انا دونه في كل شيء ، لما اطقت ان اراه متملكا هذا الكائن التام الكمال . اقول متملكا !.. حسبي هذا يا فلهلــم . ان خطيبها هنا . وهو شاب وسيم فاضل لا يملك المرء الا ان يستلطفه . ومن حسن طالعي اني لم اكن موجودا عندما التقيا ، فقد كان ذلك خليقا ان يحطم قلبي ! وهو شاب شديد الرعاية بشعور الناس ، فلم يحدث ان قبلها مرة واحده في حضوري . جزته السماء على ذلك خيرا ! ولا بد لي ان احبه لما يعاملها به من الاحترام ، وهو يظهر الرعاية لي ، بيد اني فيما اظن مدين بذلك الى شارلوت اكثر مما انا مدين به لاستلطافه اياي . فلــدى النساء لباقة شديده في هذه الامور ، ولا بد لهن من هذا ؛ لانهن لا يفلحن ان يحتفظن على الدوام بمتنافسين على وئام فيما بينهما ، الا انهــن اذا افلحن في هذا ، فهن الرابحات وحدهن !

ولا يسعني الا ان اقدر البرت حق قدره ، فهدوء مزاجه يختلف أشد الاختلاف عن اندفاع مزاجي الذي لا استطيع ان اخفيه . ولديه احساس جم بالكنز الذي يحوزه متمثلا في شارلوت . وهو مبدأ من حدة الطبع، وهي ابغض الخلال الى نفسي . ويعدني رجلا ذا فطنة ، وتعلقي بشارلوت واهتمامي بكل ما يتصل بها يزيدان من نشوة انتصاره وحبه . ولــــكن انسائل الا يغيظها احيانا بشيء من الغيرة الهينة ، لعلمي انني لو كنت في

مكانه لما وسعني ان اكون مبرءا كل البراءة من مثل هذه المشاعر .
ولكن ايا كان الحال في هذا الامر ، فبهجتي مع شارلوت قد انقضت. ولك ان تسميها حماقة او افتتانا ، فماذا في اسم ؟ فالجوهر يتحدث عن نفسه . ولقد كنت قبل قدوم البرت اعرف كل ما اعرفه الان . كنت اعرف انني لا استطيع ان اصبو اليها ، ولا انا تطاولت الى ذلك ــ اي في حدود استطاعتي وانا بمحضر كل هذه الملاحة الا الهث تطلعا اليها ، والان تخيلني ، كالأبله ، احملق في دهشة وقد جاء اخر وحرمني من موضوع حبي .

اني لأعض شفتي ، واحس السخط على اولئك الذين يطلبون مني ان استكين ، لانه لا حيلة لي . الا فلافر من نير مثل هذه الحيل والذرائع ! واني لأهيم في الغابات ، وعندما اعود الى شارلوت واجد البرت جالسا بجوارها في البيت الصيفي بالحديقة ، لا اطيق ذلك ، واسلك سلوك الاحمق الغر ، واقترف الف اندفاع نزق . واليوم قالت لي شارلوت :
ــ بحق السماء اكفف عنا المشاحنات من قبيل ما حدث ليلة البارحة ؛ انك لتروعني عندما تكون بمثل هذا العنف .
والحقيقة ــ فيما بيننا ــ انني ابتعد الان دائما عندما يزورها هو ، واشعر بالغبطة عندما اجدها بمفردها .

٨ اغسطس

صدقني يا فلهلم انني لم اكن اعرض بك عندما تحدثت بهذه الشدة عن اولئك الذين ينصحونني بالاستنكار للقدر الذي لا مناص منه ، لانه لم يخطر ببالي ان في امكانك ان تكون من اصحاب هذا الراي . ولكنك في الواقع على حق . وليس لي الا اعتراض واحد ، وهو ان المرء قلما يكون مجبرا في هذه الدنيا على ان يختار بين بديلين لا ثالث لهما . فثمة انواع متباينة جدا من السلوك والرأي ، تماثل ما يوجد من شتى صنوف التفاوت فيما بين الانف الأقني والانف الافطس .
واخالك تبيح لي ان الم بحجتك بأسرها ، ثم التمس لنفسي مهربا من معضلتك . ان موقفك هو ما يخيل الي اني اسمعك تعبر عنه على النحو التالي :
ــ اما ان تكون لديك آمال في الحصول على شارلوت ، او ليست لديك آمال في الحصول عليها . فان كانت الاولى فامض فيما انت ماض فيه ،

وواصل الضغط والتقدم الى ان تحقق امنيتك . وان كانت الاخرى فكن رجلا ، وانفض عنك عاطفة تعسة حليقة ان تثير اعصابك وتدمرك .

وهذا يا صديقي كلام طيب ، ما اسهل ان يقال . ولكن اتراك تططلب الى مخلوق تعس تذوي حياته ببطء تحت وطأة مرض مخامر ان يجهز على نفسه دفعة واحدة وعلى الفور بطعنة خنجر ؟ او ليس الاختلال نفسه الذي ينهك قواه ويستنزفها خليقا ان يجرده من الشجاعة اللازمة للاقدام على هذا الاجهاز ؟

ولعلك مجيبي — ان شئت — بتشبيه مماثل :

— ومن ذا الذي لا يفضل بتر ذراع على تعريض الحياة كلها للهلاك ؟

ولكني على كل حال لست على يقين من انني على صواب ، فدعنا من هذه التشبيهات حسبك يا فلهلم ! فثمة لحظات اتمنى فيها او قوبت على النهوض ونفض هذا الامر كله عنى ، واتمنى فيها لو فررت من هذا المكان، لو عرفت اين المفر .

نفس الامسية

رأيت امامي اليوم مذكراتي التي اهملت امرها منذ مدة ، واني لفي عجب من امرى كيف ورطت نفسي في هذه المتاهة خطوة في اثر خطوة . واني لاعجب مني كيف كنت ارى موقفي بهذا الوضوح كله ، ومع هذا تصرفت تصرف الطفل الغرير ! بل اني لم ازل ارى النتيجة بوضوح ، ومع هذا لا افكر في التصرف بمزيد من الحيطة .

١٠ اغسطس

لو لم اكن غرا اوسعني ان اقضي هنا اسعد وابهج حياة . فقلما تجتمع معاقل هذه الظروف المستحبة التي تكفل سعادة الانسان الفاضل . ولكن وا اسفاه ! كم احس ان القلب وحده هو الذي يصنع سعادتنا ! فما احظى المرء ان يجد نفسه عضوا مقبولا في اسرة بكل هذا السحر ، وان يكون محبوبا كابن لدى الوالد فيها ، وكأب لدى اطفالها ، ومحبوبا من شارلوت ! — ثم هناك البرت النبيل الذي لا يعكر سعادتي مطلقا بأي امارة من امارات الضيق او حدة الطبع ، ويتلقاني دائما بأحر مودة ، ويؤثرني — بعد شارلوت — بأكرم حب في العالم ! ولا شك انك ستسر يا فلهلم

لسماعنا ونحن ماضيان في نزهاتنا واحاديثنا كلها عن شارلوت . وما من شيء يمكن ان يكون اسخف من ارتباطي به وارتباطه بي ، ومع هـذا فالتفكير في هذا الارتباط يدفع بالدمع احيانا الى عيني .

وهو يحدثني احيانا عن امها الممتازة ، وكيف انها وهي على فـراش الموت قد عهدت ببنيها واطفالها الى شارلوت ، اما شارلوت نفسها فقـد عهدت بها اليه ، وكيف ان روحا جديدة ــ منذ ذلك الحين ــ قد استولت عليها ، وكيف ان عنايتها وقلقها على راحتهم ورفاهيتهم قد جعلاها امـا حقيقية لهم ، وكيف ان كل لحظة من لحظات وقتها صارت مخصصـة لعمل من اعمال محبتها لهم وانشغالها بهم ــ ومع هذا كله لم يفارقهـا مرحها وحبورها طرفة عين .

واني لأسير الى جواره ، واقطف الازهـار وانا ماض في سيري . فأصوغ منها عقودا مجدولة ، ثم القي بها في اول جدول نصادفه فـي طريقنا ، وارقبها وهي تطفو مبتعدة في اناة .

لست ادري هل نسيت ان اخبرك ام اخبرتك ان البرت سيظل مقيما هنا ، اذ عرضت عليه وظيفة حكومية ذات راتب طيب للغاية . وقد فهمت انه يتمتع بحظوة عظيمة في البلاط . والواقع انني قلما التفيت بشخص يضارعه في دقة المحافظة على المواعيد والمثابرة على العمل .

١٢ اغسطس

لا شك في ان البرت افضل رجل في العالم . وقد حدثت بيني وبينه مشادة غريبة بالامس ، اذ ذهبت لأودعه لانه قام براسي ان اقضي بضعة ايام في هذه الجبال التي اكتب اليك منها الان . وبينما انا أذرع حجرته وقع نظري على غدارتيه ، فقلت له :

ــ أعرني غدارتيك هاتين لرحلتي .

فأجابني :

ــ بكل سرور ، بشرط ان تتولى حشوهما ، لانهما معلقتان هنا لمجرد الزينة .

وانزلت من موضعها احداهما ، واستطرد هو :

ــ انني منذ اوشكت على الاصابة بأذى من فرط حذري ، وانا ارفض ان تكون لي بمثل هذه الاشياء صلة .

وأبديت له فضولي لمعرفة قصة ذلك . فقال :

ـ كنت مقيما منذ ثلاثة اشهر في بيت صديق لي بالريف ، وكان معي طاقم من الفدارات غير المحشوة ، وكنت انام خلي البال .. وذات عصر ممطر كنت جالسا بمفردي . لا اصنع شيئا ، عندما خطر لي ان البيت قد يهاجمه اللصوص في تلك الليلة ، وعندئذ نحتاج الى استخدام الفدارات . وانت تعرف كيف يجمع بنا الوهم عندما لا يكون لدينا ما يشغلنا . فأعطيت الفدارات للخادم كي ينظفها ثم يحشوها . وكان يلعب مع الخادمة ويحاول ترويعها عندما انطلقت احدى الفدارات ، والله وحده يعلم كيف حدث هذا ! وانطلقت الرصاصة مخترقة يدها اليمنى . ودمرت ابهامها . وكان على ان اتحمل كل القلق والعذاب ، وادفع اجر الجراح . ومنذ ذلك اليوم وانا ابقي جميع اسلحتي غير محشوة . ولكن يا صديقي ـ ما جدوى الحذر ؟ اننا لن نكون على حذر من جميع الاخطار الممكنة ، ومع هذا ...

وانت يا صديقي تعلم انني كفيل بتحمل الناس جميعا الى ان يصلوا في قولهم الى عبارة «ومع هذا» . لانه من الجلي بذاته ان لكل قاعدة في الدنيا استثناءاتها . ولكن البرت شخص بالغ الدقة ، شديد التطرف فيها ، بحيث انه اذا توهم انه قال كلمة واحدة فيها تسرع ، او افراط في التعميم ، او نصف صادقة ، لم يتوقف بعد ذلك عن التعديل والاحتراز والتحديد ، بحيث ينتهي به الامر وكأنه لم يقل شيئا على الاطلاق . وفي هذه المرة كان البرت مستغرقا اعمق استغراق في موضوعه ، فكففت عن الاصغاء اليه وشرد خاطري في حلم من احلام اليقظة ، وبحركة مفاجئة وجهت فوهة الفدارة نحو جبيني ، فوق العين اليمنى ، فصاح البرت ، موجها الفدارة الى الخلف :

ـ ماذا تعني ؟

فقلت :

ـ ولكنها غير معبأة !

فأجابني بصبر نافد :

ـ وان تكن غير معبأة ! فما الذي يمكن ان تعنيه بهذا ؟ انا لا افهم كيف يمكن لاي امريء ان يبلغ به الجنون الى حد اطلاق النار على نفسه . ومجرد هذه الفكرة في حد ذاتها تصدمني .

فقلت :

ـ ولكن لماذا يخاطر اي امريء عند الحديث عن فعل ما بأن ينعته بالجنون او الرشد ، وبأنه خير او شر . حسن او رديء ، وما معنى هذا

كله ؟ أدرست بعناية الدوافع الخفية لافعالنا ؟ اتفهم ... او ايمكنك ان تشرح الاسباب المفضية اليها ، والتي تجعلها لا مفر منها ؟ لو ادركت هذا كله لكنت أقل من هذا تسرعا في احكامك .

فقال البرت :

ــ ولكنك توافقني على ان من الافعال ما هو اجرامـــــي ، ايا كانت البواعث التي تنبثق منها هذه الافعال .

فوافقته على قوله هذا ، وهززت كتفي ، واردفت :

ــ ولكن مع هذا ــ يا صديقي الطيب ــ ثمة استثناءات ها هنا ايضا . فالسرقة جريمة ، بيد ان الشخص الذي يرتكبها مدفوعا بفاقته الشديدة ، ولا غاية له الا استنقاذ اسرته من الهلاك ، اتراه خليقا بالرثاء ام بالعقاب؟ ومن ذا الذي يلقي بأول حجر على الزوج الذي يندفع بحرارة السخـــط فيجهز على زوجته الخائنة ومغويها الخائن الغادر ؛ او على الفتاة التـي نسيت نفسها في ساعة ضعفها امام اللذة وانساقت مـــع مسرات الحب الطائشة ؟ ان قوانيننا نفسها ــ على ما تتسم به من برودة القسوة ــ تلين امام هذه الحالات ، وتحجم عن العقاب .

فقال البرت :

ــ هذه مسألة اخرى ، لان المرء يفقد ــ تحت تأثير العاطفة الجامحة العنيفة ــ كل قدرته على اعمال الفكر ، ويعد عندئذ في حكم المخمور او المجنون .

فأجبته باسما :

ــ اوه . انكم يا اهل الفهم السليم مستعدون دائما ان تصيحوا : «هذا تهور وجنون وغيبوبة ادراك !» فأنتم ايها الاخلاقيـــون بالغو الهـــــدوء والانضباط ! ولذا تحتقرون المخمور والمتهور ، فتمرون به مرور اللاوي، وتشكرون الرب ــ كالفريسي ــ لانكم لستم مثلهما . اما انا فسكرت حتى غاب رشدي اكثر من مرة . وكانت عواطفي دائما تحوم حول التهور ، ولا يخزيني ان أقر الك بهذا ، لاني تعلمت ، من تجربتي ، ان جميع الرجـــال الخارقين للمعتاد ، الذين حققوا اعمالا عظيمة ومدهشة كانوا منذ الازل متهمين في نظر العالم بأنهم سكارى او مجانين . وكذلك الحال في الحياة الخاصة ايضا ، فما ان يتصدى احد لانجاز عمل نبيل او كريم حتى ترتفع الصيحة هنا وهناك ان هذا المرء مخمور او مجنون ؟ الا خزيا لكم ، ايهـــا الحكماء !

فقال البرت :

ــ هذه اندفاعة اخرى من اندفاعات مزاجك المتهور . فمن دأبك دائما ان تبالغ في كل قضية ، وما من شك انك في هذا مخطىء ، لاننا كنا نتحدث عن الانتحار ، الذي تقارنه انت وتشبهه بالاعمال العظيمة ، مع انه من المستحيل ان تنظر اليه الا على انه ضعف . وأن يموت المرء اسهل بكثير من ان يتحمل حياة الشقاء بصبر وتجلد .

وكنت على وشك ان انهي المناقشة ، لانه ما من شيء يستنفد صبري ويخرجني منه مثل التفوه بأقوال شائعة بينما انا أتحدث من سويداء قلبي . ومع هذا هدات نفسي لانني كثيرا ما سمعت من قبل هذه الملاحظات بعينها بغيظ شديد ، واجبته بشيء من الحرارة :

ــ انت تسمي هذا ضعفا ، فحذار ان تضللك المظاهر . اذا تمردت امة طال انينها تحت نير طاغية لا يحتمل ، وطرحت عنها اغلالها في النهاية، اتراك تسمي هذا ضعفا ؟ ان المرء الذي يستنفد بيته من السنة اللهب تلفى قواه البدنية وقد تضاعفت ، بحيث يرفع بكل يسر أثقالا لا يكاد يقوى على تحريكها في غيبة هذه الاثارة ، كذلك من يهاجم عشرين شخصا من اعدائه ويحملهم على ان يولوا الادبار ، وهو تحت تأثير الغضب لاهانة لحقته ، أترى مثل هذين يمكن ان يرميا بالضعف ؟ يا صديقي الطيب ، اذا كانت المقاومة قوة . فكيف يسوغ لك ان تسمي اعلى درجات المقاومة ضعفا؟

فنظر الي البرت بامعان وقال :

ــ عفوك ! ولكني لست ارى ان الامثلة التي اوردتها لها ادنى صلة بالموضوع .

فقلت :

ــ هذا جائز جدا ، لانه كثيرا ما قيل لي ان اسلوبي في التمثيل او التشبيه يقع بعض الشيء على حدود السخف او التناقض ! ولكن هيا بنا نر هل لا يسعنا ان نضع المسألة في ضوء اخر ، او من وجهة نظر اخرى ، بأن نتساءل ماذا عسى ان تكون الحالة النفسية لشخص يقرر ان يحرر نفسه من عبء الحياة ــ وهو عبء كثيرا ما يطيب حمله ــ لاننا بدون ذلك لا يمكن ان نفكر في الموضوع تفكيرا منصفا . فالطبيعة البشرية لها حدودها ، فهي قادرة على تحمل درجة معينة من الفرح ، والحزن ، والالم ، ولكنها تتهاوى اذا ما تجاوزت جرعة هذه المشاعر حدود طاقة احتمالها . فالمسألة اذن ليست هل المرء قوي ام ضعيف ؟ بل هل هو قادر على تحمل هذا القدر المعين من العذاب . والعذاب قد يكون معنويا

او بدنيا ، وفي رأيي انه من السخف ان تنعت امرءا بالجبن لانه قتـــل نفســه ، كما انه من السخـــف ان ننعت بالجبن من راح ضحية حمـــى خبيثة .

فصاح البرت :

ـ هذه مغالطة ! مغالطة !

فاجبته :

ـ انها ليست مغالطة بالقدر الذي تتصوره . فانت موافق اننا ننعت المرض بأنه قاتل او مميت عندما يشتد عنفه ضد الطبيعة ، بحيث يستنفد قواها ، فلا تستطيع ان تعود سيرتها الاولى ... والان ، يا صديقـــي الطيب ، هيا بنا نطبق هذا المبدأ على النفس . وراقب شخصا في حالته الطبيعية المفردة ، وكيف تعمل الافكار والخواطر لديه ، وكيف تتكالب عليه الانطباعات والمؤثرات ، الى ان تستولي عليه عاطفة عنيفة مدمرة كل ما يتمتع به من تفكير هادىء ، وتحطمه في النهاية كل التحطيم . وعبثا يحاول شخص سليم العقل سوي النفس هادىء الطبع ان يفهم حالة مثل هذا الموجود التعس ، وعبثا يحاول اسداء النصح اليه . وانه ليعجز عن توصيل حكمته اليه ، مثلما يعجز الشخص الصحيح المعافى ان يبث قوته في العليل الذي يجلس بجوار فراشه .

وكان رأي البرت في هذا الكلام انه «عام» اكثر مما ينبغي . فذكرته بفتاة كانت قد اغرقت نفسها منذ برهة وجيزة ، ورويت له قصتها .

وكانت هذه الفتاة مخلوقة طيبة ، نشأت في الجو الضيق المقفل الذي يسود الاجتهاد المنزلي والعمل المحدد لكل اسبوع . فكانت لا تعرف بهجة تتعدى النزهة سيرا على الاقدام يوم الاحد ، متخذة لذلك ابهى زينتها ، ومعها صديقاتها . ولعلها كانت تشارك احيانا في الرقص اذا اقيم مهرجان او حفل راقص ، وتزجي ساعات فراغها في الثرثـــرة مع جارة لها ، فتتناقشان في فضائح القرية او مشاحناتها ، وهذه كلها شواغل يسيرة تافهة كافية لملء فراغ قلبها . وفي النهاية تأثرت حرارة طبيعتها برغبات جديدة طارئة . ولما الهبت مشاعرها عبارات الثناء يزفها الرجال اليها ، بدت لها مسراتها البريئة السابقة غثة باهتة لا طعم لها ، الى ان التقت اخر الامر بشاب أحست انها منجذبة اليه بشعور لا سبيل لها الى وصفه ، واصبحت تعقد عليه كل آمالها ، ونسيت العالم من حولها فهي لا ترى ولا تسمع ولا تتمنى شيئا سواه ، وسواه فحسب . هو وحده يحتل جميع افكارها ، واعزازها كله لا يبتغيا شيئا غيره فكل معناهـــا ان تصير له ،

وتحقق في اتحاد ابدي معه كل تلك السعادة التي كانت تنشدها ، وكل النشوة التي كانت تصبو اليها . وكانت وعوده وعهوده المنكررة تؤكد لها امانيها ، واستولت على روحها ضمانه وكلمات التدليل التي تندفق من فمه وتزيد رغبانها المتقده ضراما . وهكذا غدت وكأنها تطفو وسط عتمة مطبقه نفرر بها وتمنيها بما تتوقعه من سعادة ، واستثيرت مشاعرها العذراء حتى جاوزت ذروة التوتر . ومدت ذراعيها عندئذ لتعانق موضوع امانيها الاوحد ... وبعدها تخلى عنها حبيبها . واخذت الفتاة واختلط عليها الامر ، والفت نفسها على شفا هاوية ، والظلام مطبق من حولها . فلا امل امامها ، ولا مهرب ، لا عزاء ولا سلوان — فقد تخلى عنها ونبذها من كان وجودها كله مركزا فيه ! فلم تعد ترى شيئا في العالم كله امامها ، ولم تعد ترى احدا في الافراد الكثيرين الذين يمكن ان يملأوا فراغ قلبها . انها مهجورة منبوذة من العالم كله ، واعياها هذا الالم الممض الذي يعتصر روحها ودفعها دفعا الى الارتماء في قاع الهاوية ، كي تضع نهاية للآلام بين احضان الموت . ان عليك يا البرت ان ترى في هذه الحكاية قصة الالوف من مثيلاتها . والان خبرني ، اليست هذه حالة علة بدنية ؟ ليس للطبيعة من سبيل الى النجاه من التيه . وقد انهكت قواها واستنفدت ولا قبل لها بالمضي في الصراع والتحمل اكثر من هذا ، فكان لا بد للتعسة ان تموت ! واخزى الله من يستطيع ان ينظر اليها بكل هدوء ويقول : «يا للفتاه الحمقاء ! كان ينبغي عليها ان تتريث ، كان ينبغي عليها ان تتيح الزمن فرصة محو هذا الاثر . فتخف حده يأسها . وكانت خليقة ان تجد حبيبا اخر يسري عنها !» آلاما اشبه هذا بقول من يقول : «يا للاحمق ! ايموت بحمى ؟ لماذا لم يتريث الى ان يسترد قواه ، وتهدأ سورة دمه ؟ لقد كان كل شيء عندئذ حريا ان يسير على ما يرام ، وكان خليقا ان يكون حيا بيننا الان .»

ولم يستطع البرت ان يتبين صواب هذه المقارنة ، فأدلى بمزيد من الاعتراضات ، وكان من بينها انني انتقيت حالة فتاة جاهلة ، وانه لا يستطيع ان يفهم كيف يمكن التماس الاعذار لشخص عاقل اوسع من هذه الفتاة افقا وخبرات . فهتفت به :

— البشر بشر يا صديقي ! وبالغا ما بلغ مدى قدرته على التفكير والتعقل ، فهذه القدرة لا تجديه فتيلا عندما تعصف به الاهواء والعواطف ، ويلفى نفسه محصورا في حدود الطبيعة الضيقة . وكان الاولى في هذه

الحالة .... ولكن لندع هذا الحديث الى فرصة اخرى .

وتناولت قبعتي ، فقلبي كان قد افعم ، وافترقنا من غير ان يقنع احدنا صاحبه . فما اندر ما يفهم البشر بعضهم بعضا في هذا العالم !

١٥ اغسطس

لا يمكن ان يكون هناك شك في انه ما من شيء لا غنى عنه في هذا العالم سوى الحب . والاحظ الان ان شارلوت ما كانت لتفقدني من غير رخزة الم . والاطفال انفسهم ليست لهم الا امنية واحدة ، ان آتي لزيارتهم مرة اخرى في الغد . وقد ذهبت اليوم بعد الظهر لضبط اوتار بيانو شارلوت ، ولكني لم استطع ذلك ، لان الصغار اصروا ان احكي لهم حكاية ، وحثتني شارلوت نفسها على ان البي رغبتهم . وسقيتهم الشاي، وهم الان مسرورون بي راضون بوجودهممعي رضاهم بالوجود مع شارلوت تماما . وقد رويت لهم افضل حكاياتي عن الاميرة التي كان يخدعها الاقزام . واني اتقدم بفضل هذا التدريب ، حتى اني ادهش للانطباع الذي تتركه حكاياتي . واذا اخترعت احيانا حادثة ثم انساها في السرد التالي لنفس الحكاية ، ذكروني بها على الفور وقالوا ان الحكاية كانت مختلفة في المرة السابقة ، ولذا أجتهد الان ان اروي حكاياتي بدقة وبنفس الصوت الرتيب الذي لا يتغير ابدا . وهكذا اكتشفت مبلغ خطأ المؤلف الذي يغير في اعماله ، ولو بتحسينات من وجهة النظر الشاعرية . فالانطباع الاول يتلقاه الناس طواعية . ونحن بجبلتنا نصدق ابعد الاشياء عن التصديق ، ومتى نقشت في الذاكرة ، فالويل لمن يحاول محوها !

١٨ اغسطس

الا بد دائما من ان يكون الحال هكذا : اي لا بد لمنبع سعادتنا ان يكون ايضا ينبوع شقائنا ؟ ان الشعور الجارف المتقد الذي اذكى في قلبي حب الطبيعة ، وغمرني بطوفان من البهجة ، وجلب الفردوس بأسره امامي ، قد انقلب الان عذابا لا يحتمل .. انقلب شيطانا يتعقبني باستمرار ويدهمني بلا توقف . لقد كنت — في الايام الخوالي — انظر من هذه الصخور ، مطلا على تلك الجبال عبر النهر ، على الوادي الاخضر المزهر الممتد امامي ، وارى الطبيعة بأسرها تتفجر بالحياة متمثلة في البراعم من حولي ، واشهد

التلال المكسية من فرعها الى قدمها ، ومن سفوحها الى قممها ، بأشجار الغابة الباسقة . وانسهد الوديان بكل منحنياتها المتباينة ، تظللها أبـــدع الاحراش . والنهر ينساب فيما بين الاعشاب المتناوحة ، وقد انعكست في صفحة السحب الجميلة التي تزجيها النسيم العليـــل عبر السماء . وعندما كنت اسمع الخمائل من حولي تعج بموسيقى الاطيار المتناغمة ، واري ملايين الهوام تتراقص في اخر شعاعات الشمس الذهبية التـــي توقظ انوارها الغاربة الخنافس فتندندن من اعماق مهادها المعشوشبة ، في حس استرعي انتباهي الى الارض الجلبة المحدقة بي ؛ وهناك الصخر الاجرد يغيث العشب الجاف . بينما نبات الخلنج يزدهر فوق الرمال من تحتي . . . هذا كله كان يعرض على انظاري واحساسي بالدفء الداخلـي الذي يحرك الطبيعة جمعاء . ويملأ قلبي في داخل صدري بالوهج . فكنت انتشي واتمجد بادراكي قدرة الرب في هذا الكون اللامتناهي ، وانـــا اراها راي العيان !

جبال هائلة كانت تحدق بي ، والمهاوي كانت تفغر فاها تحت اقدامي، والشلالات الهادرة كانت تتدفق امامي . والانهار الجياشة المندفعة تتدفق مخترقة السهل المترامي . والصخور والجبال تردد هذه الاصداء من بعيد. وفي اعماق الارض رايت قوى لا حصر لها تموج بالحركة ، فتتضاعف الى ما لا نهاية . في حين تدب على سطحها ، وتحت قبة السمـــــاء عمران الالوف من الكائنات الحية . ان كل شيء من حولي حي بحيـــاة ليس لاشكالها حصر ، في حين يلوذ البشر التماسا للامن ببيوتهـــم الضئيلة ، ومن اعماقها يسيطرون — في خيالهم — على الكون المترامي . يا للحمقى الاغرار ! ففي وهمهم الكليل ان كل شيء صغير الحجم . ولكن من الجبال التي لا تبلغ الاقدام ذراها ، وعبر الصحراء التي لم تدب فوقها قدم بشر، ومن اغوار المحيط المجهول ، تهب انفاس الروح الازلي الخالق . وكـــل ذرة منحها الوجود تجد نعمة في عينيه . وكم من مرة الهمتني الطـــيور المحلقة أسرابها من فوقي الرغبة في الانتقال الى شواطىء الامواه التي لا نهاية لها كي اجرع مباهج الحياة من الكأس اللانهائية ، وكي اشارك — ولو لحظة واحدة — بقوى روحي المحدودة في غبطة هذا الخالق الذي يحقق كل شيء في ذاته وبذاته !

يا صديقي العزيز ، ان مجرد تذكري هذه الساعات لم يزل مصـــدر عزاء لي . بل ان هذا الجهد لتذكر هذه المشاعر التي لا توصف والتعبير

عنها يسمو بروحي فوق قدرها ، ويجعلني احس احساسا مضاعفا بقلقي الراهن .وكأنما انجابت الان ستار من امام عيني ، وبدلا من منظورات الحياة الابدية رايت هوة فاغرة فاها كالقبر امام ناظري . افي وسعنا ان نقول عن اي شيء انه موجود حقا ما دام كل شيء الى زوال ، وما دام الزمن يجرف كل شيء امامه بسرعة العاصفة . ووجودنا العابر ، الذي يدفعه الطوفان العارم امامه اما ان تبتلعه الامواج، او يتحطم على الصخور ! ما من لحظة الا وهي تفترسك ، وتفترس كل ما يحيط بك . ما من لحظة لست فيها ــ انت نفسك ــ اداة للدمار . فاشد المسيرات براءة تحرم الحياة الوف الهوام المسكينة ، والخطوة الواحدة تدمر ما جمعته النملة الدءوب ، وتحول عالما صغيرا الى هيولي . كلا ! ليست الكوارث النادرة الجسام في هذا العالم ، ولا الفيضانات التى تحرق قرى بأسرها ، ولا الزلازل التي تبتلع مدننا ، هي التي تؤثر في ، بل يعذب قلبي التفكير في القوة المدمرة التى تكمن في كل جزء من الطبيعة الكلية . فالطبيعة لم تشكل شيئا لا يستهلك نفسه ، ويستهلك كل ما هو قريب منه . وهكذا اتجول وانا موجع القلب أسى على ما يحيط بي من ارض وهواء وقوى ناشطة في كل شيء ، حتى لقد غدا عندي الكون وحشا رهيبا يلتهم ذراريه باستمرار .

٢١ اغسطس

عبثا امد ذراعي نحوها عندما استيقظ في الصباح من تهويماتي المتهافتة . وعبثا انشدها ليلا في فراشي ، عندما يكون حلم بريء قد خدعني واسعدني بها ، فصورها لي بجواري في الحقول ، وقد امسكت بيدها وغمرتها بما لا يحصى من القبلات . وعندما التمسها في تيه النوم وانا احس انها قريبة مني ، تفيض الدموع من قلبي المعنى ، وابكي على مستقبلي التعس وقد حرمت كل هناء .

٢٢ اغسطس

يا للمصيبة يا فلهلم ! فروحي الناشط قد انحل الى حد التراخي . ولا يسعني ان اكون عاطلا ، ومع هذا لا استطيع ان أشرع في العمل . ولست استطيع التفكير ، فلم يعد عندي شعور بجمال الطبيعة ، والكتب

غدت بقبضة الي . فمتى تخلينا عن انفسنا ضعنا ضياعا تاما . وكم من مرة تمنيت لو كنت فلاحا عاديا ، كي لا يكون عند استيقاظي في الصباح الا غرض واحد ومسعى واحد وامل واحد لذلك النهار الذي بزغ فجره . وكثيرا ما حسدت البرت عندما اراه غارقا في كومة من الاوراق والاضابير، واتوهم نفسي سعيدا لو كنت في مكانه . وكثيرا ما سيطر علي هذا الشعور حتى لقد هممت مرارا ان اكتب اليك والى الوزير طالبا ذلك المنصب في السفارة الذي نظن انه في مقدوري الحصول عليه . وكان الوزير قد اظهر اهتماما بي ، وكثيرا ما حثني على طلب العمل ، الذي لن يستغرق اكثر من ساعة . وبين الحين والحين تخطر لي حكاية الحصان الذي ملّ عليه حريته ، فرضي ان يسرج ويلجم ، وامتطوه حتى مات . والحق انني لا ادري اي قرار اتخذ . اقلبس هذا اللهف على التغير نتيجة لقلق النفس الذي سوف يلاحقني ايضا في كل مواقف حياتي .

٢٨ اغسطس

لئن كنت لادوائي وعلى الشفاء ، فسينم — يقينا — شفاؤها هاهنا . فاليوم عيد ميلادي . وفي وقت مبكر من هذا الصباح تلقيت لفافة من البرت . وما ان فتحتها حتى وجدت بها واحدا من الاشرطة الوردية التي كانت شارلوت تزين بها ثوبها في اول مرة وقع فيها نظري عليها . وكنت قد طلبت منها مرارا ان تعطيني اياه . وكان مع هذا الشريط مجلدان بهما طبعة فتستايين من "هوميروس" الصغيرة الحجم ، وكنت قد تمنيت مرارا الحصول على هذه الطبعة لتغنيني عن مشقة حمل طبعة ارنستين الكبيرة الحجم معي في نزهاتي على الاقدام . فهانت ترى كيف يحمان مبادرين الى تلبية امنياتي ورغباتي ، وكيف يفهمان كل ما تتطلبه الصداقة من اللفتات الصغيرة ، وانها لأرقى من هدايا العظماء الغالية الثمن التي تشعرنـا بالهوان . ولثمت ذلك الشريط الف مرة ، وكنت مع كل نفس من انفاسي استنشق ذكرى تلك الايام السعيدة التي لن تعود ، والتي كانت تفعمني باعمق الحبور ... وهذا قدرنا يا فلهلم ! ولست اتذمر منه ، فازاهير الحياة ليست الا رؤى عابرة سريعة الزوال . وما اكثر ما يتلاشى منها ولا يترك وراءه اثرا . وما اقل ما يبقى منها ويغل ثمرة . والثمرة نفسها نادرا ما تنضج ! ومع هذا فما اكثر الازاهير . او ليس غريبا — يـا صديقي — ان ترانا نسمح للقلة التي تنضج حقا من ثمارها ان تتعفـن

وتذهب هباء من غير ان نفيد منها متعة ؟

وداعا . فالصيف رائع بهي . وكثيرا ما اتسلق الاشجار في بستان شارلوت ، واهز الكمثرى المتعلقة بأعالي اغصانها حتى تسقط ، وشارلوت واقفة على الارض تحتها ، فتتلقفها بيديها .

٣٠ اغسطس

ما أتعسني من مخلوق ! لماذا اغرر بنفسي على هذه الصورة ؟ ماذا عسى أن تكون حصيلة كل هذه العاطفة الجامحة التي لا هدف لها ولا نهاية ؟ اني لا استطيع ان أصلي وأنضرع الا لها . فخيالي لا يرى شيئا سواها . وجميع الاشياء المحيطة بي لا حساب لها الا بمقدار صلتها بها ، واني لاستغرق في هذه الحالة الحالمة ساعات طويلة هنية ، الى ان ارى نفسي مضطرا الى انتزاع نفسي بعيدا عنها ! فعندما اقضي عدة ساعات في صحبتها ، الى ان احس اني ذبت في هيئتها ، ورشاقتها ، وتعبير افكارها القدسي ، يستثار عقلي ووجداني تدريجا الى غاية ما بعدها غاية ، ويغيم بصري ، ويضطرب سمعي ، وتتلاحق انفاسي ، وكأنما يأخذ قاتل بخناقي، وينشد قلبي الخفاق الراحة من حواسي المتوجعة . ولا اعي احيانا اموجود انا ام غير موجود . وما لم اجد في مثل تلك اللحظات تعاطفا ، وما لم تسمح لي شارلوت بمتعة العزاء الاسيف بغسل يديها بدموعي ، شعرت بأنه لا بد لي من انتزاع نفسي منها ، اما لأضرب على غير هدي في انحاء الريف ، او لأتسلق حاجزا صخريا وعرا محفوفا بالخطر ، او لأشق لي طريقا عنوة بين الاشجار الملتفة حتى لتمزق اثوابي الاشواك البرية ، عندئذ اجد الراحة . بل اني أستلقي احيانا على الارض ، وقد غلبني التعب على امري ، واكاد اموت ظمأ . وأحيانا ، في ساعة متأخرة من الليل ، والقمر ساطع من فوقي ، ألوذ بشجرة عجوز في غابة منعزلة ، كي اريح اطرافي المنهكة ، وهناك انام ــ من فرط الاعياء ــ حتى طلوع النهار .

ان صومعة الناسك ــ يا فلهلم ــ وخرقته ، واكليل الشوك ، خليقة ان تكون ترفا ونعيما بالقياس الى ما أكابده وأعانيه .

وداعا ! فلست ارى نهاية لهذا الشقاء اللهم الا القبر .

٣ سبتمبر

لا بد لي من الابتعاد . شكرا لك ــ يا فلهلم ــ لانك حسمت لي

حيرتي وترددي . لقد فكرت طيلة اسبوعين في مغادرتها . لا بد لي من الابتعاد والرحيل عنها . وقد عادت الى البلدة ، حيث تقيـــم في بيت صديقة لها . ثم هناك البرت ــ اجل لا بد لي من الذهاب .

١٠ سبتمبر

أوه ، يا لها من ليلة يا فلهلم ! وفي وسعي منذ الان ان أتحمــل اي شيء . لن اراها بعد الان . من لي بأن أسقط على عنقك ، وافرج عــن العواطف التي تبلبل فؤادي ، بفيض من الدموع والتنهدات . هأنذا لاهثاً مكافحا كي أهدىء من روعي .. واني لفي انتظار طلوع النهار . فعنـــد انبلاج الصبح ستكون الخيل امام الباب .

اما هي فنائمة بسلام وهدوء ، لا يطوف بخلدها ان أنظارها وقعت علي للمرة الاخيرة . لقد تحررت . وقد واتتني الشجاعة في لقاء دام ساعتين معها الا افشي لها نيتي .. ويا له من حديث ذاك الذي دار بيننا بـــا فلهلم !

وكان البرت قد وعد بالحضور لدى شارلوت في الحديقة بعد العشاء مباشرة . وكنت في الشرفة تحت شجرة كستناء عالية ، ارقب الشمس الغاربة ، ورايت الشمس وهي تغوص للمرة الاخيرة وراء ذلـــك الوادي البديع ، وذاك الجدول الصامت . وكثيرا ما المت مع شارلوت بهـــذه البقعة نفسها وشهدت معها ذلك المنظر الفخم المجيد ، والان هانذا أذرع جيئة وذهابا ذلك المشى الاثير عندي ، وكثيرا ما اشرقت على روحـــي عاطفة خفية هناك قبل ان أعرف شاراوت ، وكم ابهجنا ونحن في فجر تعارفنا عندما اكتشفنا ان كلا منا يحب نفس البقعة ، وهي حقا رومانتيكية كأي بقعة اسرت لب فنان وخياله على وجه الارض

والمنظر تحت اشجار الكستناء فسيح مترام . ولكني اتذكر اني ذكرت لك فيما سبق هذا كله في احد خطاباتي ، ووصفت لك اجمة اشجـــار الزان العالية في نهايته ، وكيف ان هذا المشى يزداد عتمة وقتاما كلما تعرج مساره فيما بينها ، الى ان ينتهي بمعتكف مظلم له كل مفاتن الوحدة والعزلة . ولم ازل اتذكر شعور الاسى الغريب الذي دهمني في اول مرة دخلت فيها ذلك المتكف المظلم ، في وهج الظهيرة . لقد خامرني شعور خفي مبهم بأن هذا المكان سيكون حتما سرحا لسعادة لي او شقاء .

وقد قضيت نصف ساعة نهبا لصراع محتدم بين الذهاب والعودة واذا بي أسمع اصواتهما ، صاعدين الى الشرفة المكشوفة ، فجريت اليهما لاستقبالهما . وارتجفت وأنا اتناول يدها وأقبلها . ولما بلغنا قمة الشرفة طلع القمر من وراء التل الذي تكسوه الاشجار . وشجر بيننا الحديث في مختلف الامور ، ودون ان ندري اقتربنا من ذلك المعتكف المعتم . ودخلته شارلوت ، ثم جلست على الارض ، وجلس البرت بجوارها . وحذوت حذوهما ، بيد ان اضطرابي لم ييسر لي ان اظل جالسا فترة طويلة ، فنهضت قائما ووقفت قبالتها ، ثم تمشيت جيئة وذهابا ، وعدت بعد ذلك الى الجلوس . كنت قلقا تعسا . ولفتت شارلوت انتباهنا الى ضوء القمر وتأثيره البديع في المنظر ، لانه كان يفضض المرئيات فوق الشرفة قبالتنا من وراء اشجار الزان . والحق ان المنظر كان رائعا فخما ، وزاد من روعته وابهته ذلك الظلام الذي كان يغمر البقعة التي نحن فيها . وظللنا صامتين بعض الوقت ، واذ بشارلوت تقول :

ــ كلما سرت في ضوء القمر جلب الى ذاكرتي كل اصدقائي المحبوبين الراحلين ، فتمتلىء نفسي بخواطر الموت والحياة المقبلة .

والتفت نحوي وأردفت :

ــ لسوف نحيا من جديد مرة اخرى يا فيرتر . ولكن هل سيعرف كل منا الاخر مرة اخرى ؟ ما رأيك في هذا ؟ ما قولك ؟

فقلت لها وانا اتناول يدها بين يدي ، وقد اغرورقت عيناي بالدموع :

ــ شارلوت ! سيرى كل منا الاخر مرة اخرى ، هنا . وفيما بعد ، سوف نلتقي .

ولم استطع ان اقول اكثر من هذا . فلماذا ــ يا فلهلم ــ تلقي علي هذا السؤال بالضبط في اللحظة التي كان خوف تفرقنا القاسي يغمر فؤادي ؟

فقالت شارلوت :

ــ وهل يعرف هؤلاء الاعزاء الراحلون كيف نقضي اوقاتنا هاهنا ؟ هل حقا يعرفون متى يكون بخير وسعادة ؟ أيعرفون متى نتذكرهم بكل حب واعزاز ؟ ان شبح امي يطيف بي ، ويحوم حولي ، في ساعات المساء الساكنة ، وانا جالسة بين اطفالي ، اراهم متجمعين بقربي كما تعودوا التجمع بقربها ، وعندئذ ارفع عينـي القلقتين اللهفانتين الى السماء ، وأتمنى ان تكون امي ناظرة من عل الينا ، لترى كيف ابر بالوعد الذي

قطعته على نفسي لها في لحظاتها الاخيرة ، ان اكون اما لاطفالها . وبكل حرارة مشاعري اهتف بها عندئذ : «عفوك يا اعز الامهات وغفرانك ان كنت لا املأ الفراغ الذي تركته كما ينبغي ! واأسفاه ! اني لأبذل غاية جهدي . فها هم كاسون طاعمون ، بل افضل من هذا كله انهم ها هم موضع الحب والرعاية والتربية الصالحة . الا ليتك ـ ايتها القديسة العذبة الروح ـ ترين السلام والتناغم اللذين يغمرانا ، لكنت اذن خليقة ان تمجدي الرب بكل مشاعر العرفان والشكر ، ذلك الرب الذي تضرعت اليه في ساعاتك الاخيرة ان يكلأنا ويسعدنا» .

اجل ، هكذا يا فلهلم قالت شارلوت ، ولكن من ذا الذي يستطيع ان يصور لك طريقة كلامها ، والروح السماوي الذي شع منها وهي تقول هذه الكلمات التي انقلها لك على الورق باردة هامدة .

وقاطعها البرت بلطف قائلا :

ـ ان هذا كله يؤثر فيك تأثيرا اعمق مما ينبغي يا عزيزتي شارلوت . وانا اعلم ان روحك تطيف بها مثل هذه الذكريات البديعة ولكني أتوسل اليك ...

فقاطعته قائلة :

ـ اوه يا البرت ! اني واثقة بأنك لا تنسى تلك الامسيات التي تعودنا ان نقضيها نحن الثلاثة حول المائدة الصغيرة المستديرة ، عندما يكون والدي متغيبا ، وقد أوى الصغار الى فراشهم . وكثيرا ما يكون معك كتاب جيد ، الا انك قلما تطالع فيه ، لان حديث تلك المخلوقة النبيلة كان مفضلا على كل شيء ... تلك المرأة الجميلة ، المشرقة ، الذكية ، اللطيفة ، التي لا تكف عن العمل والكدح رغم كل شيء . والله وحده يعلم كم اغرقت فراشي في الليل بالدموع وانا أبتهل اليه ان اشب فأكون مثلها !

فألقيت نفسي عند قدميها ، وأمسكت بيدها ، واغرقتها بدموعي هاتفا :

ـ شارلوت ! ان نعمة الله وروح امك يباركانك !

فقالت ، وهي تضغط يدي ضغطا رفيقا :

ـ آه لو كنت رأيتها ! لقد كانت جديرة بأن تعرفها .

واحسب انني كنت على وشك الاغماء ، لانني لم اتلق في حياتي ثناء كهذا ، واردفت هي قائلة :

ـ ومع هذا كان مقضيا ان تموت وهي في زهرة عمرها ، عندما كانت طفلتها الصغرى لا تتجاوز الشهور الستة . وكان مرضها قصير الامد ،

بيد انها كانت هادئة ومستسلمة ، ولم تشعر بالشقاء الا من اجل اطفالها فحسب ، ولاسيما اصغرهم . وعندما دنا اجلها ، امرتني ان احضرهم اليها ، فأطعتها . وكان الاحدث سنا من بينهم لا يعرفون شيئا عن خسارتهم الفادحة الوشيكة ، اما الاكبر سنا فكان الحزن مستوليا عليهم وقد غلبهم على امرهم ، وكان الجميع وقوفا حول سريرها ، ورفعت يديها الواهنتين نحو السماء ودعت لهم وتضرعت من اجلهم ، ثم قبلتهم الواحد تلو الاخر ، وقالت لي : «كوني اما لهم» . فأعطيتها يدي ، فقالت : «لقد اخذت على عاتقك الشيء الكثير يا ابنتي : انه حنان الام ورعايتها ما تعدين به ! ولقد شهدت مرارا كثيرة من دموعك وعرفانك انك تدرين ما حنان الام ، فاظهري هذا لاخوتك واخواتك . وكوني عند واجباتك واخلاصك وامانتك لابيك ، كما لو كنت زوجنه ، فستكونين انت مصدر راحته وعزائه» . وسألت عنه ، وكان قد اعتكف ليخفي عنا المه الممض ، فقد كان محطم القلب . ولقد كنت انت يا البرت في الحجرة ، وسمعت هي صوت حركة ، فسألت من هذا ، وطلبت ان تدنو منها . وراحت تفحصنا نحن الاثنين بنظرة تفيض رضا وطمأنينة ، اعرابا عن ايمانها بأننا سنكون سعيدين معا .

وعندئذ وقع البرت على عنقها وقبلها هاتفا :

ــ واننا لكذلك ! وسنكون دائما كذلك !

فالبرت نفسه ، الهادىء غالبا ، اهتز لقولها . اما انا فبلغ اضطرابي غاية ليست بعدها غاية . واستطردت هي :

ــ وهكذا كان على مثل هذه المخلوقة ان تفارقنا . الا قل لي يا فيرتر :

هل كتب علينا ــ يا الهي ! ــ ان نفارق كل ما هو عزيز لدينا في هذه الدنيا ؟ ما من احد شعر بهذا الفقد كما شعر به الاطفال ، فقد بكوا واعولوا امدا طويلا بعد ذلك ، لان رجالا داكني الوجوه حملوا امهم الغالية بعيدا .

ونهضت شارلوت من مكانها ، فنبهني ذلك ، ولكني بقيت جالسا ، وامسكت بيدها ، فقالت :

ــ فلننصرف . فقد تأخر الوقت .

وحاولت ان تسحب يدها . ولكني ابقيتها في يدي وهتفت :

ــ لسوف يرى كل منا الاخر مرة اخرى . ولسوف يتعرف كل منا على الاخر بالغا ما بلغ التغير الذي يعترينا . وانا الان ذاهب ، ذاهب

بمحض اختياري ، ولكني ان قلت وداعا الى الابد ، فقد لا اكون عند قولي هذا . وداعا يا شارلوت . وداعا يا البرت . ولسوف نلتقي مرة اخرى .

فأجابتني باسمة :

ـ نعم .. نلتقي غدا فيما اعتقد .

غدا ؟ ما كان اعجب وقع هذه الكلمة علي ! آه ! انها لم تكن تعرف الحقيقة عندما سحبت يدها من يدي . وسارا معا هابطين المشى ، ووقفت احدق في أثرهما في ضوء القمر . والقيت بنفسي على الارض وبكيت . ثم وثبت واقفا ، وجريت فوق الشرفة المكشوفة ، وابصرت تحت ظلال اشجار الزيزفون ثوبها الابيض يختفي قرب بوابة الحديقة . ومددت ذراعي نحوها .

وتلاشت من ناظري .

الكتاب الثـــاني

٢٠ اكتوبر

وصلنا الى هنا بالامس . والسفير متوعك الصحة ، ولن يخرج الا بعد مرور بضعة ايام . ولو كان أقل شكاسة وانقباض لكان كل شيء على ما يرام . واني لأرى بوضوح ان السماء كتبت علي ان امر بمحن جسام ، بيد ان الشجاعة وخفة القلب قد تتحملان اي شيء . خفة القلب ! انـي لأبتسم اذ اجد مثل هذه الكلمة تصدر عن قلمي . فأيسر المزيد من خفـة القلب عسية ان تجعلني أسعد مخلوق تحت الشمس . ولكن هل لي ان اقنط من مواهبي ، فـي حين ان اخرين ممن هم أقل مواهب منـي بكثير جدا يتمخطرون امام ناظري بأقصى ما يمكن من الرضا عن انفسهم ؟ ايتها الحكاية الصمدانية ! يا من ادين لها بكل قواي وقدراتي ، لماذا لا تحتجزي عني بعض النعم التي اسبغتها علي ، لتمنحيني عوضا عنها شعورا بالثقة بالنفس والرضا ؟

ولكن صبرا ! فلم يزل من الممكن ان يغدو كل شيء على ما يرام ، فاني اؤكد لك ، يا صديقي العزيز ، انك كنت على حق . فمنذ اضطـررت اضطرارا أن اخالط الاخرين باستمرار ، والاحظ ما يصنعون ، وكيـف يشغلون وقتهم ويستخدمون قدراتهم ، وانا اشعر بمزيد من الرضا عن

نفسي . فنحن بمقتضى تكويننا الطبيعي ميالون دوما الى مقارنة انفسنا بالاخرين ، وسعادتنا او شقاؤنا يتوقفان كثيرا جدا على الاشياء والاشخاص المحدقين بنا . ولهذا السبب فليس هناك ما هو اخطر من الوحدة او العزلة . ففيها تكون مخيلتنا متأهبة دواما للنهوض والانبراء محلقة على جناحي الوهم — عرضة لتطوير الاخرين وكأننا في وسطهم ادنى المخلوقات طرا . فجميع الاشياء تبدو اعظم مما هي في الحقيقة ، ولذا تلوح لنا ارقى واسمى . وهذا العمل من جانب النفس طبيعي جدا ، فنحن نشعر دائما بنقصنا ، ونتوهم اننا ندرك في الاخرين الملكات والصفات التي ليست لنا ، فنعزو اليهم ايضا كل ما نستمتع به ، وبهذا الاسلوب نكون فكرة الانسان الكامل السعيد : وهو انسان لا وجود له، هذا الا في خيالنا نحن.

اما عندما نتصرف — برغم الضعف وخيبة الامال — الى العمل الجاد، ونثابر عليه بثبات ، فكثيرا ما نجد اننا — مهما غيرنا مسارنا — نمعن في التقدم اكثر من الاخرين الذين تساندهم الرياح وحرب المد ، والواقع انه لا يمكن ان يكون هناك رضا اكبر من مسايرة خطوات الاخرين ، او التقدم عليهم في مضمار السباق .

٢٦ نوفمبر

بدات ارى وضعي هنا اكثر احتمالا ، اذا اخذنا في الاعتبار جميع الظروف واني اجد فائدة جمة في كثرة شواغلي . كما ان كثرة عدد الاشخاص الذين اقابلهم ، واختلاف مساعيهم ومقاصدهم ، يستحدث لي تسلية متنوعة .

وقد تعرفت على الكونت س... ويزداد تقديري له يوما بعد يوم . فهو رجل قوي العقل عظيم التمييز ، ولكنه وان كان ابعد نظرا من سائر الناس الا انه لا يجنح بسبب ذلك الى برود الطبع او الاسلوب ، بل هو خليق ان يلهم المرء أحر مشاعر المودة ومستعد لتلقيها . وقد ابدى اهتماما بي في احدى المناسبات عندما احتجت الى تصريف بعض الاعمال معه ، فقد ادرك ، منذ الكلمة الاولى ، ان كلا منا يفهم الاخر ، وان في مقدوره ان يتحدث الي بلهجة غير التي يستخدمها مع الاخرين . ولن استطيع ان افيه حتى من تقدير صراحته ورقته معي . وانها لاعظم واصدق بهجة لي ان ارقب عقلا كبيرا بينه وبين عقلي تعاطف .

٢٤ ديسمبر

لقد صدق ما توقعته ، فها هو السفير يسبب لي ضيقا لا حد له . فهو أشد قدم تحت السماء دقة وتدقيقا : يؤدي كل شيء خطوة بخطوة، بكل ما تتسم به المراة العجزز من تزمت في الدقة . فهو رجل يستحيل على اي انسان ان يرضيه ، لانه لا يرضى عن نفسه ابدا . وانا احب ان اؤدي الاعمال بانتظام ومرح ، ومتى فرغت من عمل نحيته جانبا . اما هو فيعيد باستمرار اوراقي قائلا :

ــ انها لا بأس بها ، ولكنني أوصيك ان تعيد النظر فيها مرة اخرى ، لان المرء يستطيع دائما ان يحسن فيها باستخدام لفظ افضل ، او ظرف او حال او حرف انسب لمقتضى الحال .

وعندئذ افقد صبري كله ، واتمنى لو يخطفني الشيطان . فهو يريد حذف حرف جر او حال . وهو يبغض كل انواع التعديلات التي لدي غرام بها . وأذا كانت انغام عصرنا غير مضبوطة على الانتاج الرسمي ، فلن يفهم المعنى الذي نرمي اليه . وانه لمن نكد الطالع ان نكون على صلة بمثله .

ومعرفتي بالكونت س .... هي التعويض الوحيد عن مثل هذا الخلاء . وقد قال لي منذ ايام بصراحة انه شديد الاستياء للمصاعب والتعطيل التي تصدر عن السفير . وان أمثاله عقبات امام انفسهم وامام الاخرين على السواء ، وأردف ذلك بقوله :

ــ ولكن على المرء ان يذعن ويتحمل ، شأنه شأن المسافر الذي ينبغي عليه ان يصعد جبلا ، فلو لم يكن الجبل حيث هو ، لكان الطريق اقصر والطف وايسر ، ولكنه موجود حيث هو ، ولا بد للمسافر ان يعبره .

ويدرك ذلك الشيخ (السفير) انعطاف الكونت نحوي وتحيزه لي ، فيضيق بذلك ، وينتهز كل فرصة للنيل من الكونت على مسمع مني . ومن الطبيعي انني ادافع عنه ، وذلك ما يجعل الامور اسوأ مما هي . وبالامس اثار استنكاري ، لانه عرض بي ايضا بنبرة قائلا :

ــ ان الكونت رجل دنيا ومجتمع ، ورجل اعمال جيد ، واسلوبه ايضا جيد ، وينساب في الكتابة بسهولة ، ولكنه ــ شأن كل عبقري ــ لم يحظ بتعليم متين .

ونظر نحوي وعلى وجهه تعبير كأنه يريد ان يعرف هل شعرت باللطمة التي تلقيتها ام لا ، ولكنها لطمة لم تحدث الاثر المرغوب فيه ... لانني

احتقر الشخص الذي يمكن ان يفكر ويتصرف على هذا النحو . ومع هذا تصديت له ، ورددت عليه بالشيء غير اليسير من الحرارة ، فقلت له ان الكونت رجل اهل لكل احترام بسند من طبعه وخلقه ، وبسند من صفاته المكتسبة وعلمه ايضا . وانني لم الق في حياتي كلها مثيلا له في احتشاد عقل بالمعرفة النافعة المتعددة الجوانب . وفي امتلاك ناحية كل هذه الموضوعات المتباينة التي يحسنها فعلا ، ومع هذا يخصص نشاطه كله لتفصيلات العمل العادي .

فكان هذا الذي قلته مجاوزا طريقته في الفهم ، واستأذنت في الانصراف حتى لا تثور ثائرة غضبي بسخافة اخرى من سخافاته .

وانت الملوم على هذا كله ، لانك انت الذي اقنعتني ان أحني عنقي لاضع عليه هذا النير ، بكثرة ما وعظتني وبشرتني بحياة العمل والنشاط . فلئن لم يكن من يستنبت الخضر ويحمل غلاله الى المدينة في ايام السوق خيرا مني استخداما ومشغلة لوقته ، فأنا مستعد ان أعمل عشر سنوات اخرى في هذه السخرة التي اري نفسي مكبلا اليوم بأغلالها .

يا للتعاسة ، والاعياء ، اللذين يمنى المرء بشهودهما بين ظهراني اولئك البلهاء الذين يلقاهم المرء في المجتمع هاهنا ! ويا لطموح المكانة والمنصب ! وما اكثر ما يترصدون ويتربصون ويكدحون للوصول الى الحظوة والترقي ! ويا للعواطف الهزيلة المزدراة التي تتراءى لنا هنا عارية لا يسترها شيء ! فلدينا ها هنا امراة ــ مثلا ــ لا تكف عن تسلية الجمع بحكايات وحكايات عن عائلتها وضياعها . والغريب خليق ان يعدها مخلوقة بلهاء ، اداء راسها ادعاء المكانة والجاه والثراء ، بيد انها في الحقيقة أسخف منها وأدعى للضحك منها : فان هي الا ابنة كاتب المحكمة من اهل هذه الناحية . ولست ادري كيف يمكن للكائنات البشرية ان تحط من ذاتها الى هذا الحد .

واني لألاحظ في كل يوم مزيدا بعد المزيد من حماقة الحكم على الاخرين قياسا على انفسنا . وأجد هنا مشقة عظيمة جدا مع نفسي ، وقلبي في حالة اضطراب مستمرة ، حتى انني راض تماما وقانع بأن ندع الاخرين يواصلون مساعيهم ، وحسبهم ان يتركوا لي ممارسة مثل هذا الحق .

وما يثيرني اكثر من اي شيء هو المدى التعس الذي تصل اليه التمييزات بين الاقدار والمراتب . واني لأعرف تمام المعرفة مبلغ لزوم وحتمية الفروق بين الاوضاع ، وعدم التساوي فيها ، وأقدر تماما تلك المزايا والحقوق التي استمدها شخصيا من هذا المبدا ، ولكني لا اطيق ان

تتحول هذه المؤسسات الى حواجز وسدود امام الفرصة اليسيرة من فرص السعادة التي يمكن ان احظى بها على وجه هذه الدنيا .

وقد تعرفت اخيرا بالانسة ب... وهي فتاة لطيفة جدا ، استطاعت ان تحتفظ بروحها واساليبها الطبيعية الفطرية وسط هذه الحياة المصطنعة. وقد سررنا كلانا بهذا الحديث الاول الذي جرى فيما بيننا ، فطلبت اليها عند الانصراف ان تأذن لي في زيارتها ، فوافقت بأسلوب لطيف ورقيق جدا ، حتى انني انتظرت حلول هذه اللحظة السعيدة بصبر نافذ . وهي ليست من مواليد هذه البقعة ، بل تقيم هنا مع عمة لها . ولكن سحنة هذه العمة لا تأسر القلب . وقد وجهت لها الكثير من اهتمامي، وخصصتها بمعظم الحديث ، وبعد أقل من نصف ساعة اكتشفت ما اخبرتني به ابنة اخيها بعد ذلك ، من ان عمتها العجوز لا تملك الا ثروة صغيرة ، ونصيبا اصغر من هذا ايضا من الفهم والادراك ، ولذا فهي لا تستشعر شيئا من السرور او الاهتمام الا بشجرة انساب أسلافها ، ولا تجد حماية او امنا الا في مولدها النبيل ، ولا متعة الا في اشرافها من ذرى قلعتها على رءوس المواطنين الوضعاء . وما من شك في انها كانت وسيمة في شبابها، ولعلها في مقتبل عمرها كانت تزجي وقتها بارضاء نزواتها لاهية بقلوب وحواس الكثيرين من الشبان المساكين ، فلما نضج سنها اذعنت لنير ضابط من المحاربين القدماء ، الذي رد لها منحته من شخصها واستقلالها اليسير في صورة مشاركته اياها ما يمكن ان نسميه عصرها النحاسي . وقد مات عنها ، فهي اليوم ارملة مهجورة منعزلة ، تقضي عصرها الحديدي بمفردها ، ولا تريد ان يدنو منها احد ، ولا يريد احد ان يقربها ، اللهم الا لاجل ملاحة ابنة اخيها .

٨ يناير ١٧٧٢

اي نوع هذا الذي ينتمي اليه اولئك الرجال الذين يشغلون تفكيرهم بالشكليات والمراسم ، ويقضون سنين مخصصين جهودهم العقلية والبدنية لتحقيق هدف واحد ، هو التقدم في ذلك المسار خطوة واحدة ، ومكافحين لا لشيء الا لكي يشغلوا على المائدة مكانا اعلى مما كانوا فيه ! وليس هذا عن خلو من الشواغل عدا هذا ، بل هم على العكس يجشمون انفسهم كثيرا عناء باهمالهم العمل المهم في سبيل هذه التفاهات . ففي الاسبوع الماضي ثارت مسألة تتعلق بالاسبقية في حفل انزلاق ، مما ادى

الى افساد متعتنا باسرها .

فهذه المخلوقات البلهاء لا تستطيع ان ترى ان المكان ليس هو الذي يبغي العظمة الحقيقية ، وأن من يشغل المكان الاول ليس — اللهم الا نادرا — هو الذي يقوم بالدور الرئيسي . فكم من ملك يحكمه وزراؤه ، وكم من وزراء يحكمهم سكرتيروهم ؟ ومن في هذه الحالة هو الرئيس الحقيقي ؟ انه — في نظري — من يستطيع ان ينفذ ببصيرته الى حقيقة الاخرين ، ولديه من القوة او البراعة ما يجعل قوتهم او أهواءهم في مقدمة ما يريد تنفيذه من اهدافه شخصيا .

٢٠ يناير

كان لا بد لي ان اكتب اليك يا عزيزتي شارلوت من هذا المكان ، من حجرة صغيرة في خان ريفي ، حيث اعتصمت لائذا بها من عاصفة هوجاء. ففي مدة اقامتي كلها بذلك المكان التعس (د ....) ، حيث سكنت بين غرباء — غرباء حقا عن هذا القلب — لم اشعر في اي وقت بأقل ميل للتراسل معك . اما وانا في هذا الكوخ ، في هذا المعتكف ، في هذه العزلة ، مع الجليد ، والريح تضرب مصراع نافذتي ، فانت اول من فكرت فيه ، فمند دخلت هذا المكان وصورتك ماثلة امام خاطري ، بكل الذكرى — وانها يا شارلوت لذكرى مقدسة غاية في الرقة ! ايتها السماء الرحيمة المنعمة ! اعيدي لي تلك اللحظة السعيدة ، لحظة لقائنا في باكورة تعارفنا !

الا ليتك تريني — يا عزيزتي — وسط دوامة هذا التشتت . فقد جفت ينابيع حواسي وذهني، ولكن قلبي لم يستطع شيء في اي وقت ان يملأه. ولا احظى بأي لحظة من لحظات السعادة ، فكل شيء باطل الاباطيل ، الكل باطل . ما من شيء يحركني وكأنني واقف امام أصنام لألاعيب (الأرجواز) : ارى الدمى الصغيرة تتحرك ، وأتساءل اليس ما ارى محض وهم وخداع نظر. واني لأتسلى بهذه الدمى، ولكني بالاصح انا دمية من بينها، ولكنني عندما امسك احيانا بيد جاري احسها غير طبيعية ، واسحب يدي وانا ارتجف، وفي المساء اقول «لسوف أستمتع بشروق شمس الغد» ، ومع هذا اظل مستلقيا في فراشي ، وفي النهار آلي على نفسي ان أتجول في ضوء القمر ، بيد انه اذا حل المساء أظل في عقر داري . ولا أدري لماذا اصحو ولا لماذا انام . ان «الخميرة» التي كانت تبث الحياة في وجودي قد ذهبت والطلسم الذي كان يبهجني في وجوم الليل ويوقظني من كرى الصباح قد

قرب مني الى الابد .

وقد وجدت مخلوقا واحدا هنا يثير اهتمامي ، وهو الانسة ب. وهي تشبهك يا عزيزتي شارلوت ، ان كان من الممكن ان يشبهك احد لا أعلم انك ستقرلين :

ـ آه ! لقد عرف اخيرا كيف يزجي عبارات المجاملة الرقيقة :

وهذا صحيح الى حد ما . فقد رضت نفسي على ان اكون لطيف المعشر مؤخرا ، لانه لم يكن في وسعي ان اصنع غير هذا . وصار عندي الكثير من حضور البديهة ، وتقول السيدات انه لا مثيل لي في فهم الاطراء . وارك ستقولين الزيف والبهتان ، لان هذه تكمل ذاك . ولكن لا بد لي ان أحدثك عن الانسة ب. . . ان لها روحا ذكيا يكاد يطفر من وميض عينيها الداكنتي الزرقة . ومكانتها مصدر عذاب لها ، ولا ترضي رغبة واحدة من رغبات فؤادها . وهي مستعدة ان تنسحب طواعية من دوامة المظاهر ، وكثيرا ما نصور لنفسينا حياة من السعادة الصافية وسط مشاهد العزلة في أعماق الريف ، ثم تتحدث عنك يا عزيزتي شارلوت ، لانها تعرفك ، وتكن التقدير لسجاياك ، وهو تقدير غير مفتعل، بل يصدر عنها طواعية . انها تحبك ويسرها ان تكوني موضوع الحديث بيننا .

الا ليتني جالس عند قدميك في حجرتك الصغيرة المفضلة ، والاطفال الاعزاء يلهون من حولنا ! واذا ما أزعجوك ، قصصت انا عليهم حكاية مروعة من حكايات الجن ، فيتحلقونني بانتباه صامت . ها هي الشمس تغرب في جلال ، واشعتها الاخيرة تسطع على الثلج الذي يغطي وجه الريف . لقد سكنت العاصفة ، ولا بد لي من العودة الى ايماني . وداعا ! هل البرت معك ؟ وكيف حاله معك ؟

غفر الله لي هذا السؤال ؟

٨ فبراير

منيت طيلة الاسبوع الماضي بأسوأ طقس ، بيد ان هذا كان نعمة علي وبركة . فطيلة مقامي ها هنا لم تجد السماء بيوم معتدل الجو ساطع الشمس الا وضاع علي هذا اليوم بتطفل شخص ما . اما مع اشتداد المطر، والريح الصرصر ، والجليد ، والعاصفة ، فاني اغبط نفسي بأن الجو في الداخل لا يمكن ان يكون اسوأ منه في الخارج ، ولا هو في الخارج يمكن

ان يكون اسوأ منه داخل الجدران ، وبذلك ارضى بالامر الواقع . فاذا ما اشرقت الشمس في الصباح واعدة بيوم رائع ، فلا يفوتني ان اهتف :

ـ الان وقد حلت بركة اخرى من السماء ، فلن يفوتهم ان يفسدوها، على دابهم في افساد كل شيء ، من صحة وشهرة وسعادة وسرور ، وهم غالبا ما يرتكبون ذلك عن حماقة او جهل او بلاهة ، وهم يحسبون انهم صادرون عن افضل النيات !

وأكاد في كثير من الاحيان أتوسل راكعا على ركبتي ، أن يكونوا أقل تصميما على تدمير انفسهم .

١٧ فبراير

اخشى انني لن استطيع الاستمرار طويلا مع سفيري هذا ، فقد اوشك ان يتجاوز كل طاقات الاحتمال . فهو يصرف عمله بأسلوب سخيف جدا، حتى انني كثيرا ما اضطر الى مناقضته ، منجزا الامور على طريقتي الخاصة . ومن الطبيعي بعد ذلك ان يراها تمت بصورة غاية في السوء. وقد شكاني اخيرا لهذا السبب لدى البلاط ، ووجه الوزير الي اللوم ... وكان اللوم مخففا جدا في الحقيقة ، ولكنه لوم على كل حال . ونتيجة لهذا كنت على وشك ان أقدم استقالتي ، واذا بي أتلقى خطابا اذعنت له بكل احترام ، اعتمادا على الروح السامي النبيل الكريم الذي أملاه . وقد حاول مرسله ان يلطف حساسيتي المفرطة ، وأعرب لي عن تقديره لافكاري الرفيعة عن الواجب ، والقدوة الصالحة ، والمثابرة على العمل ، على اعتبار ان هذه كلها من ثمرات حماسة شبابي ، وقال ان تلك الحماسة باعث قوي لا يجب أن يقضي عليه ، ولكنه يوصيني بتلطيفه ، لينفسح امامه مجال العمل المثمر لكل خير . وهأنذا مستريح البال لمدة اسبوع اخر ، ولا اعاني من الشقاق مع نفسي . ان الرضا وراحة البال من أثمن الامور. ولكم كنت أتمنى ايها الصديق العزيز لو كانت هذه الجواهر الغوالي أدوم بقاء وأقل عرضة للزوال .

٢٠ فبراير

باركالله فيكم يا صديقي العزيزين ، وأفاء عليكما السعادة والهناء للذين أباهما علي !

واشكرك يا البرت لانك خدعتني . فقد ظللت أنتظر نبأ تحديد يوم قرانكما ، وكنت انوي في ذلك اليوم ، ان اقوم بكل الجد بانزال صورة شارلوت الجانبية عن الحائط ، وأن أواريها مع بعض الاوراق الاخرى التي في حوزتي . ولكن ها انتما الان قرينان ، متحدان بالزواج ، وصورتها لم تزل ها هنا . ليكن ، ولتبق اذن حيث هي ! ولم لا ؟ فأنا أعلم اني لم ازل احد اعضاء مجتمعكما ، وانني لم ازل أشغل مكانا لا يمس في قلب شارلوت ، بل انني أحتل فيه المكان الثاني ، وانا انتوي الاحتفاظ لنفسي بهذا المكان . واني لقمين ان اجن لو انها نسيتني . الا ان هذه الفكرة بمثابة الجحيم لي يا البرت ! وداعا يا البرت . وداعا يا ملاك السماء . وداعا يا شارلوت !

١٥ مارس

لقد حدث لي امر مؤسف ، سيبعدني حتما عن هذا المكان . لقد عيل صبري ! انه الموت ! ولا سبيل الى اصلاح ما وقع ، وانت وحدك الملوم، لانك انت الذي حثثتني وارغمتني على شغل هذا المنصب الذي لم اكن مهيأ له بحال من الاحوال .

ولكي لا تعزو مرة اخرى هذه القارعة الى حدة مزاجي المندفع الطائش، ابعث اليك — يا سيدي العزيز — بسرد بسيط خال من التزويق للمسألة برمتها ، كما لو كان مؤرخ من مؤرخي الوقائع هو الذي يصفها لك .

ان الكونت او... يستلطفني ويقدرني . هذا امر معروف جيدا ، وقد ذكرت هذا لك مائة مرة . وقد تغديت معه بالامس ، وهو اليوم الذي تعود فيه النبلاء ان يجتمعوا ببيته في المساء . ولم تخطر لي هذه الجمعية ببال من قبل ، ولا خطر لي اننا — نحن الاصاغر او المرءوسين — لا ننتمي الى هذا المجتمع . لقد تعشيت اذن مع الكونت ، وبعد الغداء انتقلنا الى البهو الكبير . وتمشينا جيئة وذهابا معا ، وتحدثت معه ، ومع الكولونيل ب ... ، الذي انضم الينا . وعلى هذا النحو اقتربت ساعة الاجتماع . والله يشهد انني لم اكن أفكر في شيء ، واذا بمن يدخل ؟ الليدي س ... ، يصحبها زوجها النبيل ، وابنتهما البلهاء الماكرة ، بخصرها الصغير وعنقها المسطح ، وعبروا بجواري في غطرسة ، وهم يرمونني بنظرات الازدراء . ولما كنت من أعماق فؤادي أبغض السلالة كلها ، لذا قررت ان انصرف ، ولم انتظر الا ريثما تخلص الكونت من

ثرثرتهم الوقحة كي استأذنه في الانصراف ، واذا بالانسة ب. اللطيفة المعشر تدخل القاعة . ولما كنت لا القاها الا وشعرت بسرور قلبي ، لـذا بقيت وتحدثت اليها ، متكئا على مقعدها ، ولم اشعر ــ الا بعد مرور فترة من الوقت ــ انها مرتبكة ، حتى قد كفت عن الرد علي بأسلوبها الطلق المعهود منها ، فأدهشني هذا وصدمني ، وقلت لنفسي :

ــ يا اله السماء ! ايمكن أن تكون هي ايضا كالاخرين ؟

وشعرت بالضيق ، وكنت على وشك الانسحاب من القاعة ، ولكني بقيت مع هذا ، متمحلا المعاذير لسلوكها معي ، متوهما انها لم تكن تقصد ما بدر منها ، ولم تزل تخامرني الامال في تلقي ما يدل على مودتها وتقديرها . وعندئذ وصلت بقية الجماعة . وكان فيهم البارون ف . في حلة كاملة ترجع الى حفل تتويج فرنسيس الاول ، والمستشار ن. ، ومعه زوجته الصماء ، و ا. الزري الملبس ، الذي تحمل سترته القديمة الطراز آثار اصلاح حديث ، وبه اختتم الجمع . وتحدثت مع بعض معارفي ، ولكنهم كانوا يجيبونني في اقتضاب . وكنت مشغولا بملاحظة الانسة ب ، ولم الاحظ ان النساء كن يتهامسن في اقصى القاعة ، كانت تخاطب الكونت بكثير من الحرارة (وكل هذا روته لي فيما بعد الانسة ب.) الى ان تحرك الكونت في النهاية واقبل نحوي ، وانتحى بي جانبا في الشرفة وقال لي :

ــ انت تعلم ما هي عاداتنا السخيفة ، وقد لاحظت ان الجماعة هنا مستاءة من وجودك هنا . وما كنت شخصيا ، لاي سبب من الاسباب..

فهتفت به :

ــ عفوك يا صاحب السعادة ! كان ينبغي علي ان افكر في هذا الامر من قبل ، ولكني واثق بأنكم ستغفرون لي هذا السهو اليسير ، وقد كنت على وشك الانصراف على كل حال منذ برهة ، ولكن سوء طالعي هو الذي استبقاني .

وابتسمت ثم انحنيت ايذانا بالانصراف ، فشد على يدي بأسلوب عبر عن كل شيء ، وأسرعت انا بمغادرة الجمع الموقر ، ووثبت الى عربة ، وركبتها الى م. ووقفت اتأمل الشمس الغاربة من قمة التل ، وقرأت تلك الفقرة الجميلة من هوميروس التي يصف فيها اكرام الرعاة وفادة «اوليس» . وكانت فكرة بديعة حقا .

وعدت الى بيتي لاتعشى في المساء ، ولكن بضعة اشخاص كانوا مجتمعين في الحجرة ، وقد قلبوا ركنا من اركان غطاء المائدة ، وراحوا

يلعبون الزهر ودخل ا . الطيب القلب ، فوضع قبعته عندما رآني واقترب مني . وقال بصوت خفيض :

ـ لقد وقع لك حادث مؤسف اليوم .

فهتفت :

ـ انا ؟!

ـ لقد ارغمك الكونت على الانصراف من الجمعية .

فقلت :

ـ الا فليتخطف الشيطان الجمعية ! لقد سرني كثيرا ان أنصرف منها.

فقال :

ـ انيلسعيد ان اراك تأخذ الامر بهذه الخفة ، وكل ما هناك انني آسف لك ، لان الموضوع كثر حوله الكلام فعلا .

وعندئذ بدات المسألة تؤلمني ، وتوهمت ان كل من جلس ونظر نحوي ولو مرة واحدة انما كان يفكر في هذا الحادث ، وشاعت المرارة في فؤادي .

وفي هذه اللحظة كنت خليقا ان اغرس خنجرا في صدرني ، لشعوري ان كل امريء برثي لحالي ، وتصوري مبلغ انتصار اعدائي الذين يقولون ان هذا دائما هو حال المغرورين ، الذين يدير الزهو رءوسهم فيصطنعون احتقار الشكليات ، وما الى ذلك من سفاسف الامور .

ولك ان تقول ما تشاء عن التجلد ، ولكن ارني الانسان الذي يستطيع ان يتحمل في صبر ضحكات البلهاء ، وقد تمكنوا منه . ولا يسع المرء ان يتحمل ضحكاتهم بلا تذمر ، الا عندما تكون على غير اساس .

١٦ مارس

كل شيء يتآمر ضدي . فاليوم قابلت الانسة ب . وهي تتنزه على الاقدام . ولم أملك نفسي من الانضمام اليها ، ولما صرنا على مبعدة معقولة من رفيقاتها ، اعربت لها عن شعوري بتغير احوالها معي ، فقالت بلهجة تشي بالانفعال :

ـ اي فيرتر ! كيف تسنى لك ـ وانت تعرف قلبي ـ ان تسيء تأويل ما خامرني من كرب ؟ فما كان اشد ما أعانيه لاجلك منذ لحظة دخولك القاعة ! وقد توقعت ما حدث برمته ، وكنت مائة مرة على وشك ان اذكره لك . فقد كنت أعلم ان آل س ، وآل ت . خليقون ان يفضلوا

مغادرة الحجرة على البقاء بها في صحبتك . وكنت أعلم ان الكونت لا يمكن ان يغضبهم او يقطع صلته بهم . والان قد كثر الكلام جدا في هذا الشأن.
فهتفت بها :
ـ كيف ؟
وحاولت ان اخفي انفعالي ، لان كل ما كان «أدلين» قد ذكره لي بالامس ارتد الى ذهني ارتدادا أليما في تلك اللحظة . فقالت تلك الفتاة الودود ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، فلم أكد أتمالك نفسي ، وأوشكت ان القي بنفسي عند قدميها :
ـ ما اشد ما كلفتني هذه الحادثة المؤسفة حتى الان !
فصحت :
ـ وضحي كلامك !
وانهمرت الدموع على خديها ، فكدت اجن ، ومسحت هي دموعها وهي لا تحاول اخفاءها وقالت :
ـ انت تعرف عمتي ، وكانت حاضرة ، ولك ان تتصور في اي ضوء نظرت الى هذه المسألة ! فأمس مساء ، وهذا الصباح ايضا يا فيرتر اجبرت على الاصغاء لمحاضرة عن معرفتي بك . واضطررت ان اسمع ادانتك والحط من قدرك ، ولم استطع ـ لم اجرؤ ـ ان اقول الكثير دفاعا عنك .
وكانت كل كلمة تخرج من فمها بمثابة خنجر غاص في قلبي . ولم تشعر بمدى وصمتها لو انها اخفت عني كل شيء . وأخبرتني فضلا عن هذا بكل الوقاحات التي سيتم تداولها بشأني ، وكيف سيتم النصر للاشرار ، وكيف سيتهللون فرحا للعقاب الذي سيحل بكبريائي ، وبالهوان الذي سألقاه لاستخفافي بأقدار الاخرين ، ذلك الاستخفاف الذي كثيرا ما لاموني عليه .
ولقد أيقظ سماعي ـ يا فلهلم ـ لكل هذا العطف والتعاطف الصادق كوامن انفعالي . ولم أزل في حالة اهتياج مفرط . واني لأتمنى لو رأيت رجلا من خصومي يتنقصني بسبب هذا الحادث كي اقتله من فرط غيظي، لعل دمه المسفوح يخفف من ثورة غضبي الجائح . ولقد امسكت مائة مرة بخنجر ، وهممت ان افرج به كرب هذا القلب ، ويحدثنا علماء التاريخ الطبيعي عن سلالة نبيلة من الجياد تقطع بفريزتها احد شرايينها بأسنانها، اذا ما اشتدت حماستها وبلغ منها الاعياء في السباق الطويل ، كي تتنفس

بمزيد من الطلاقة والحرية ، ولكم حاولت ان أشق في جسدي شريانا ، كي اوفر لنفسي التحرر الابدي .

٢٤ مارس

قدمت استقالتي الى البلاط ، وأتمنى ان تقبل ، فأصفح عني لاني لم استشرك قبل ذلك . فلا بد لي من مغادرة هذا المكان . وانا أعلم انكم جميعا ستحضونني على البقاء ، ولذا ارجوك ان تبلغ النبأ ملطفا الى والدتي . اني لعاجز عن ان أصنع لنفسي شيئا ، فكيف يتسنى لي اذن ان اصنع شيئا لمساعدة الاخرين لسوف يكربها انني اجهضت ذلك المستقبل الذي كان يمكن ان يجعلني في البداية مستشارا خاصا ، ثم وزيرا ، وانني انظر الى ما ورائي بدلا من التقدم الى الامام . ولكن ان تدلي بما شئت من حجج واسباب كانت خليقة ان تدعوني الى البقاء ، ولكني راحل ، وهذا حسبك !

ولكيلا تكون جاهلا بمصيري ، أذكر لك ان امير... موجود هنا ، وهو مسرور جدا بصحبتي ، ولما سمع بعزمي على الاستقالة دعاني الى بيته الريفي ، كي اقضي شهور الربيع معه . وهناك سيترك لي حرية التصرف في وقتي تماما ، ولما كنا متفقين في جميع الامور ، ما عدا شيئا واحدا ، فسوف أجرب حظي ، واصحبه .

١٩ ابريل

شكرا لك على خطابيك كليهما . وقد تريثت في الرد الى ان احصل على رد من البلاط ، فقد خفت ان تتقدم والدتي الى الوزير كي تحبط مسعاي . ولكني عرفت ان طلبي قد أجيب ، وقبلت استقالتي . ولن أعيد عليك هنا على اي مضض قبلت ، ولا ما الذي كتبه الوزير في رده، لانك خليق عندئذ ان تجدد تحسرك على تصرفي . وقد ارسل الي ولي العهد هدية قوامها خمسة وعشرون روكاتية (عملة ذهبية) ، ان هذه الرقة حركت مشاعري حتى دمعت عيناي . ولهذا السبب لن اتقاضى من امي النقود التي كنت قد طلبتها .

٥ مايو

سأغادر هذا المكان غدا ، ولما كان مسقط راسي لا يبعد عن الطريق لسلطاني الا ستة اميال ، ففي نيتي ان أتوجه لزيارته مرة اخرى ، واستعيد احلام طفولتي العذبة . وسأدخل من نفس البوابة التي اخترقتها مع امي ، عندما غادرت ــ بعد وفاة ابي ــ ذلك المتكف البديع لتنغمس في حياة المدينة المقبضة . وداعا يا صديقي العزيز ، وستصلك انباء عن مستقبلي العملي .

٩ مايو

لقد زرت مسقط راسي بكل ولاء الحجيج وخشوعهم ، وخامرتني مشاعر غير متوقعة . فبالقرب من شجرة الدردار الكبيرة ، التي تبعد عن القرية مقدار ربع مرحلة ، ترجلت من العربة ، وامرت ان تسبقني ، كي استمتع بمفردي بكل حيوية وسرور قلبي بلذة ذكرياتي ، ووقفت هناك تحت هذه الدردارة بعينيها التي كانت فيما مضى نهاية نزهاتي على قدمي ، والغاية من هذه النزهات ايضا . شد ما تغيرت الاشياء منذ ذلك الحين ! ففي ذلك الزمن الغابر ، كنت في معمعان جهلي الهنيء أتنهد تلهفا على عالم لم اكن اعرفه ، كنت آمل ان اجد فيه كل لذة ومتعة . اما الان ، ابان عودتي من ذلك العالم الرحيب ، في اكثر ما جئت بي معي ــ يا صديقي ــ من الامال المخيبة والخطط المحبطة !

ولما تأملت الجبال التي تمتد امام ناظري ، خطر لي كم من المرات كانت هذه الجبال موضوعا لأعز رغباتي . وهنا تعودت ان اجلس ساعات متوالية ، وقد شدت نظراتي اليها ، متمنيا من اعماق فؤادي ان يتاح لي التجوال في ظل الغابات ، وان أضل طريقي في تلك الوديان ، التي تبدو بديعة عن بعد . وعلى اي مضض كنت اغادر هذه البقعة الساحرة ، عندما تنتهي ساعة رياضتي واستجمامي ، وينتهي بذلك ما حصلت عليه من رخصة للتغيب عن الدار !

ودنوت من القرية ، فاذا كل البيوت الصيفية العتيقة المعروفة ، وكل الحدائق وقد تجددت ذكراها فتعرفت عليها من جديد ، ولم احبب ما استجد من البيوت والحدائق ، وسائر التغييرات التي أدخلت على المكان .

ودخلت القرية ، وعاودتني كل مشاعري القديمة . وليس في مقدوري ــ يا صديقي العزيز ــ ان ادخل في التفصيلات ، برغم جمال احساساتي ، لان هذه التفصيلات ستبدو سمجة عند السرد . وانتويت ان اقيم في ساحة السوق ، بالقرب من بيتنا القديم . وما ان اخلت حتى تبينت ان قاعة المدرسة ــ حيث كان اطفالنا يتعلمون على يد تلك المرأة العجوز ــ قد تحولت الى حانوت . وتبادر الى ذهني كل الاحزان والهموم والدموع والقهر التي عرفتها في ذلك المكان الذي كنت اخاله سجنا .

وكانت كل خطوة تحدث عندي انطباعا جديدا . ومن يحج الى الاراضي المقدسة لا يلتقي بكل هذه الكثرة من المواضع الحبلى بالذكريات الرقيقة ، وقلما تتأثر روحه ويشعر بكل هذا الخشوع . وقد تكفي حادثة واحدة على سبيل التمثيل . فقد تعقبت مسار جدول الى مزرعة ، كانت فيما مضى مقصدا بديعا لرياضة المشي عندي ، ووقفت عند البقعة التي كنا ــ ونحن صبية ــ نمتع انفسنا ونتسلى باللهو على سطح مائها ، وتذكرت جيدا كيف كان من عادتنا فيما مضى ان نرقب مسار ذلك المجرى نفسه ، ونتعقبه بلهفة واستطلاع ، متخيلين صورا رومانسية للاقطار التي سوف يخترقها ، ولكن مخيلتي كانت تصاب بالاعياء ، في حين يستمر الماء في تدفقه الى مسافات أبعد ، الى ان يكل توهمي ويعجز عن تصور تلك المسافات غير المرئية . ولقد كانت هكذا تماما ــ يا صديقي العزيز ــ افكار اسلافنا الصالحين ، بهذه السعادة ، وبهذه الحدود الضيقة . ولذا كانت مشاعرهم وكان اشعارهم ناضرة كالطفولة . وعندما يتكلم «أوليس» عن البحر الذي ليست له حدود ، وعن الارض التي لا نهاية لها ، كانت تعبيراته صادقة طبيعية عميقة الحس تحفها الاسرار . فما اهمية ما تعلمته كما تعلمه كل غلام يختلف الى المدرسة ، من ان العالم كروي ؟ ان الانسان لا حاجة به الا الى القليل من الارض للاستمتاع ، والى ما هو اقل من ذلك المقدار لراحته الاخيرة .

انا الان مع الامير في مقر صيده . وهو رجل يستطيع المرء ان يعيش معه في سعادة ، فهو صادق امين غير متكلف . ولكن يحيط به ــ مع هذا ــ اشخاص فيهم غرابة ، عجزت تماما عن فهمهم . وهم لا يبدون من اهل الشر ، بيد انهم ايضا لا تبدو عليهم امارات اهل الشرف والامانة ، واشعر احيانا بميل الى الاعتقاد بأمانتهم ، ومع هذا لا اتمكن من اقناع نفسي بالثقة بهم . ويحزنني ان اسمع الامير يتحدث احيانا عن امور قرأ

عنها او سمع بها فحسب ، ويأتي كلامه عنها على نحو ما صورها لـــــه الاخرون .

وهو يقدر فهمي ومواهبي اكثر مما يقدر قلبي ، ولكني لست فخورا الا بهذا القلب ، فهو المنبع الوحيد لكل شيء : لقوتنــــا ، وسعادتنا ، وشقائنا . اما المعرفة التي عندي ففي وسع سائر الناس ان يحصلوها ، في حين ان قلبي يخصني وحدي دون سواي من البشر .

٢٥ مايو

ثبتت في راسي خطة لم اكن انوي ان أحدثك عنها حتى تتحقق : اما وقد حبطت الان ، ففي وسعي ان أذكرها لك . فقد فكرت ان ادخـــل الجيش ، وظللت امدا طويلا متمنيا ان اخطو هذه الخطوة . ولقد كان هذا في الواقع هو السبب الرئيسي وراء مجيئي الى هنا مع الامير ، لانه جنرال في خدمة جيش ... وقد ذكرت له هذا المقصد في احدى نزهاتنا معا على الاقدام ، فلم يوافق عليه ، وكان جنونا مطبقا الا اصغي لمبررات قراره هذا .

١١ يونيو

قل ما شئت ، فلن استطيع البقاء هنا بعد الان . ولماذا ابقى ؟ ان مرور الزمن يثقل علي هنا بسبب الفراغ . والامير شخصيا من الطف ما يكون معي ، ومع هذا لست على سجيتي ، فليس هناك في الواقع شيء مشترك بيننا على الاطلاق . انه من اهل الفهم ، بيد انه فهم عادي جدا . واحاديثه ليست مصدر امتاع لي اكثر مما يمكن ان استمده من تصفح كتاب جيد الاسلوب . سأبقى هنا اسبوعا اخر ، وبعد هذا اشرع فـــي اسفاري مرة اخرى . ورسومي هي افضل ما صنعته منذ حللت ها هنا . والامير متذوق للفنون ، ومن الممكن ان يتحسن لولا ان عقله مكبل بالقواعد الباردة والافكار التقنية المجردة . وأحيانا ينفد صبري ، عندما انطلـــق خيال متوقد في التعبير عن الفن والطبيعة ، واذا به يتدخل بمقترحاته، ويستخدم استخداما عشوائيا مصطلحات الفنانين التقنية .

١٦ يونيو

ها قد ارتددت مرة اخرى جوالا ، اضرب في الدنيا طولا وعرضا . ولكن ما تراك تكون انت ايضا ؟

١٨ يوليو

الى اين تراني ذاهب ؟ سأفضي اليك بهذا بيني وبينك . اراني مضطرا للبقاء ها هنا اسبوعين اخرين ، وبعد ذلك أعتقد انه من الخير لي ان ازور مناجم ... ولكني اضلل نفسي هكذا . فالواقع اني اريد ان اكون بالقرب من شارلوت مرة اخرى . وهذا كل شيء . واني لابتسم من تعلات قلبي ، واصدع بما يمليه قلبي .

٢٩ يوليو

كلا كلا ! لم يزل كل شيء بخير .. كل شيء بخير ! انا زوجها ! رباه ، يا من منحتني الوجود ، ان كنت قد كتبت هذه السعادة لي ، لكانت كل حياتي سلسلة متصلة من صلوات الشكر ارفعها اليك ! ولكني لن أتذمر .. اغفر لي هذه الدموع ، واغفر لي هذه التمنيات العقيمة .

هي زوجتي ؟! الا ان مجرد التفكير في ضم أعز مخلوقات السماء هذه بين ذراعي يكاد يطيش صوابي ! ان كياني كله يا عزيزي فلهلم يشعر بالتقلص والتشنج عندما ارى البرت يضع ذراعيه حول خصرها النحيل !

ولكن هل لي ان أعترف لك ؟

ــ ولم لا يا فلهلم ؟ انها كانت خليقة ان تكون أسعد معي مما هي معه. فالبرت ليس الرجل الذي يرضي رغائب مثل هذا القلب ، ان قلبها يتطلب نوعا معينا من الحساسية ، انه يتطلب .... قصارى ما أعنيه ان قلبيهما لا يخفقان بايقاع واحد ، وفي اتحاد تام . كم من مرة ــ يا صديقي العزيز ــ ونحن نطالع معا فقرة ما من كتاب مثير للاهتمام ، وقد بدا ان قلبي وقلب شارلوت يتلاقيان ، بل وفي مئات اخرى من المناسبات حينما كانت عواطفنا تتكشف بتأثير قصة عن شخصية من الشخصيات الخيالية ، كنت أحس ان كلا منا خلق للاخر ! ولكنه يا عزيزي فلهلم

يحبها بكل نفسه . وما الذي لا يستحقه مثل هذا الحب ؟
لقد فوجئت بزيارة لا تطاق ، فجففت دمعي ، ورتبت افكاري ، والان وداعا يا خير صديق !

٤ اغسطس

لست وحدي العاثر الجد . فجميع البشر مخيبو الآمال ، تخذلهم توقعاتهم . لقد قمت بزيارة المراة الصالحة التي عرفتها قديما تحت اشجار الزيزفون . وقد أسرع اكبر ابنائها للقائي ، وسمعت امه صيحات فرحه فخرجت الينا ، ولكن منظرها كان يوحي بالاكتئاب . وكانت اولى كلماتها لي :

ـ وا حسرتاه يا سيدي العزيز ! لقد مات ابني الصغير جون .
وكان جون أصغر ابنائها . ولذت بالصمت .
ـ وقد عاد زوجي من سويسرا ولم يجلب معه مالا على الاطلاق . ولولا ان بعض العطوفيين من الناس اعانوه لاضطر الى تسول نفقات الطريق الى الوطن ، وقد اصابته الحمى وهو في الطريق .
ولم استطع جوابا ، بيد اني قدمت للصغير هدية . ودعتني لتناول شيء من الفاكهة ، فاستجبت لها ، وغادرت بعد ذلك المكان بقلب أثقلته الاشجان .

٢١ اغسطس

مشاعري دائمة التغير . واحيانا تنفتح امامي توقعات سعيدة ، ولكن وا أسفاه ! لا يدم هذا الا برهة قصيرة ، ثم عندما اغيب في احلام يقظتي لا املك الا ان اقول لنفسي :
ـ لو مات البرت ! اذن لغدت ... ولغدوت ...
وهكذا امعن في ضلالات الوهم الى ان تقودني الى الهاوية التي اقف امامها مرتجفا . وعندما اسير ـ بالخيال ـ مخترقا نفس البوابة ، وعلى نفس الطريق الذي قادني اليه اول مرة ، يغوص قلبي في داخلي لمجرد التفكير في التغير الذي حدث . لقد تغير كل شيء ! ولم يعد شعور من

مشاعري ولا نبضة من قلبي كما كانت . ان احساسي لهو اشبه باحساس أمير راحل يعود روحه ليلم بالقصر الفخم الذي ابتناه في ايـــام سعده ، وزينه بأغلى الزخارف ، وتركه من بعده لولده الحبيب ، واذا به يلفى مجده وقد ذهب ، ووراءه وقد انطفأ ، وابهاءه وقد غدت مهجورة ، وران عليها الخراب حتى جعلها اطلالا . . .

٢ سبتمبر

اني لأعجز احيانا عن فهم كيف يتسنى لها ان تحب رجلا اخر ، وكيف تجرؤ ان تحب رجلا اخر ، في حين انني لا احب شيئا في هذه الدنيا مثل هذا الحب التام ، وبمثل هذا الخشوع ، مثلما احبها هي . وفي حين انني لا اعرف سواها ، ولا أملك في الدنيا شيئا غيرها .

٤ سبتمبر

ما ان تتخذ الطبيعة الوان خريفها ، حتى يسود الخريف في داخلي ويحدق بي . فأوراقي ذابلة صفراء ، والاشجار المحيطة بي عاطلة مـــن أوراقها . اتذكر كتابتي اليك عن ذلك الغلام الفلاح بعيد وصولي الى هنا بقليل ؟ لقد سألت عنه اخيرا في فالهايم ، فقيل لي انه طرد من عمله ، وان الجميع يتجنبونه . وقد لقيته بالامس على الطريق ، ذاهبا الى قرية مجاورة . وكلمته ، وحدثني بقصته ، فشاقتني للغاية ، وستدرك هذا تمام الادراك عندما أعيدها عليك . ولكن لماذا ازعجك ؟ لماذا لا احتفـــظ بجميع احزاني لنفسي ؟ لماذا أواصل اتاحة الفرص لك كي ترثي لي وتوجه اللوم الي ؟ ولكن لا ضير . فهذا ايضا جانب من قدري .

في البداية اجاب الفتى الفلاح عن استفساراتي بشيء من الاكتئاب المذعن المتطاعن ، الذي بدا لي آية على طبع خجول ، ولكن لما ازداد فهم كل منا لصاحبه غدا أقل احتجازا وتحفظا في كلامه ، واعترف صراحـــة بأخطائه ، وتحسر على سوء طالعه . واني لأتمنى يا صديقي العزيز لـــو أوتيت القدرة على التعبير الملائم عن لغة حديثة . فقد قال لي ــ بشيء من التذكر المحبب اليه ــ ان ولعه ــ بعد رحيلي ــ بمخدومته اخذ فـــي الازدياد بمرور الايام ، الى ان فقد الوعي بما يصنع وما يقول ، ولم يعد يدري ماذا سيصير من امره . ولم يعد قادرا على طعام او شراب او نوم ،

وصار يحس نوعا من الاختناق ، وجعل يعصي كل امر يصـــدر اليه ، وينسى ــ بغير ارادته ــ كل تعليماته ، فبدا وكأن روحا شريرا يتعقبه ، الى ان عرف ذات يوم ان مخدومته صعدت الى حجرة علوية ، فتبعها ، او قل انه وجد نفسه منجذبا على آثارها . ولما اصمت اذنيها عن توسلاته ، لجأ الى العنف . وهو لا يدري بالضبط ماذا حدث ، بيد انه يشهـــد السماء ان نيته نحوها كانت شريفة ، وانه ما صبا الى شيء بكل صدق واخلاص سوى الزواج منها ، كي يقضيا حياتهما معا . ولما وصل فــي قصته الى هذا الموضع شرع يتردد ، وكأن لديه شيء ما لا يجد الشجاعة على التفوه به ، الى ان اعترف بشيء من الارتباك بأنها شجعته على شيء من الاعترافات والافضاء بمكنون قلبه نحوها ، وبأنهـــا كانت قد سمحت ببعض التجاوزات . وتوقف مرتين او ثلاثا في سياق السرد ، وأكد لي بكل جد انه لم تكن لديه اي رغبة في افسادها او الاساءة اليها ــ على حد تعبيره ــ لانه لم يزل يحبها بكل الاخلاص كذي قبل ، وان هذه القضية لم يتفوه بها فمه قط من قبل ، وانه ما افضى بها الى الان الا كي يقنعني بأنه ليس ضائعا تمام الضياع ولا منبوذا تمام النبذ .

وهنا يا صديقي العزيز اراني مضطرا ان ابدأ الانشودة القديمة التــي تعلم اني أرددها دائما : آه لو استطعت ان أصور الفتى كما وقف ، وكمـــا يقف الان امامي ! وآه لو امكنني ان اصور تعبيره الحقيقي ، اذن لرأيت لزاما عليك ان تتعاطف معه في قسمته الضيزي . ولكن حسبك ــ وانت ادرى الناس بنكبتي واتجاهي النفسي ــ ان تفهم في يسر مقدار الجاذبية التي تستولي علي وتعطفني على كل انسان عاثر الجد ، ولاسيما على ذلك الفتى الذي قصصت عليك قصته الان .

وعند اعادة تلاوة هذا الخطاب اجدني اغفلت نهاية حكايتي ، ولكـــن ايرادها من أيسر الامور . لقد غدت المراة شديدة التحفظ معه ، بتحريض من اخيها الذي كان يكرهه منذ امد طويل ، ويريد طرده من البيت ، لانه كان يخشى ان يفضي زواج اخته مرة اخرى الى حرمان اطفاله من الثروة الطيبة التي يتوقعونها منها ، لانه لا ولد لها . وفي النهاية فصل مـــن الخدمة ، واثارت المسألة فضيحة كبيرة بحيث لم تجسر السيدة علـــى اعادته لخدمتها ، بفرض انها ارادت ذلك . وقد استأجرت بعد ذلـــك خادما اخر ، يقولون ان اخاها غير راض عنه ايضا ، ويبدو انها ستتزوجه . ولكن محدثي يؤكد لي انه شخصيا مصمم على الا يعيش بعد وقوع هذه الكارثة .

وهذه القصة رويتها لك بلا مبالغة ولا تزويق ، بل الواقع اني اضعفتها وشوهتها عند سردها باستخدام التعبيرات التي يسبغها المجتمع .

فهذا الحب اذن ، وهذا الوفاء ، وهذا الولع ، ليس خيالا شاعريا ، بل هو امر واقعي ، حدث بأوفى نصيب من النقاء في تلك الطبقة من البشر التي ننعتها بالغلظة ، والعطل من التربية والتعلم . ونزعم اننا نحن المتعلمون لا الشواذ ! ولكني اناشدك ان تطالع هذه القصة بانتباه وعناية. وانا اشعر اليوم بالهدوء لاني شغلت نفسي بهذا السرد ، ولعلك ترى من خط يدي اني لست مضطربا جدا كالعادة . اقراها اذن واعد قراءتها يا فلهلم ، فهي قصة صديقك ! وحظي كان وسيكون شبيها بهذا . وانا لست أقل شجاعة وتصميما من ذلك التعس المسكين الذي أتردد في مقارنة نفسي به .

٥ سبتمبر

كتبت شارلوت خطابا الى زوجها في الريف ، حيث عاقته بعض اعماله . وقد استهلته بقولها :

ــ يا أعز حبيب ، عد بأسرع ما يمكنك ، فاني انتظرك بألف نشوة .

ووصل صديق يحمل نبأ منه بانه ــ لاسباب معينة ــ لا يستطيع العودة فورا . ولم يحول خطاب شارلوت الى عنوان زوجها الجديد ، وفي نفس الامسية وقع في يدي ، فطالعته ، وابتسمت . وسألتني عن السبب، فقلت :

ــ يا للمخيلة من كنز سماوي ! لقد توهمت للحظة ان هذا الخطاب موجه الي .

فصمتت ، وبدا عليها الاستياء . ولذت انا بالصمت .

٦ سبتمبر

لقد تجشمت كبير عناء كي افارق المعطف الازرق الذي كنت أرتديه اول مر ةراقصت فيها شارلوت . ولكني لم اعد قادرا على ارتدائه ، ولذا امرت بتفصيل نظير له جديد ، مطابق له تماما ، حتى فيما يتعلق بالياقة والكمين ، كما طلبت تفصيل صدار وسروال جديدين . بيد ان هذه الثياب الجديدة ليس لها نفس الاثر في نفسي ، ولست ادري لهذا سببا، الا اني آمل ان آلفها بمرور الوقت .

١٢ سبتمبر

تغيبت شارلوت بضعة ايام ، اذ توجهت للقاء البرت ، واليوم زرتها، فنهضت لاستقبالي ، وقبلت يدها بحنان شديد .

وطار عصفور كناري في هذه اللحظة من مرآة هناك واستقر على كتفها . فقالت ، وهي تجعله يجثم فوق يدها :

ـ ها هو صديق جديد ، وهو هدية للاطفال . ويا له من عزيز انظر اليه ! عندما اطعمه يرفرف بجناحيه ، وينقر الطعام بظرف بالغ . وهو يقبلني ايضا .. انظر ..

ورفعت العصفور الى فمها ، فلثم شفتيها الحلوتين بحرارة عظيمة وحماس ، حتى لكأنه يحس مبلغ الهناء الذي ينعم به . واردفت شارلوت :

ـ وسوف يقبلك ايضا .

وعندئذ قربت الطائر مني ، فتحرك منقاره الصغير من فمها الى فمي، واحسست لهذا المس وكأنه ارهاص بأعظم سعادة . وقلت لها :

ـ ان القبلة لا يبدو انها تقنعه ، فهو يريد الطعام ، ويبدو ان هذا التدليل يخيب امله .

فقالت :

ـ ولكنه يأكل من فمي .

ومدت شفتيها نحوه وفيهما بعض البذور ، وابتسمت بكل السحر الذي يشع من الكائن الذي سمح بالمشاركة البريئة في حبه .

وحولت وجهي مشيحا عن هذا المشهد ، فما كان ينبغي ان تصنع هذا . كان ينبغي الا تثير خيالي بمثل هذه الافاعيل التي تفيض سعادة وبراءة ، ولا ان توقظ قلبي من سباته الذي يحلم فيه بتفاهة قيمة الحياة ! ولماذا لا ينبغي لها هذا ؟ لانها تعرف كم احبها .

١٥ سبتمبر

كم يشقيني يا فلهلم ان يكون في الدنيا اناس عاجزون عن تقدير الاشياء القليلة ذات القيمة الحقيقية في الحياة . اتذكر اشجار اللوز في ... التي تعودت ان اجلس تحتها مع شارلوت ، اثناء زياراتي للقس الفاضل المسن ؟ تلك الاشجار الرائعة التي كان مجرد النظر اليها يملأ

قلبي في كثير من الاحيان بالحبور ، لكم كانت تزين وتنعش فنـــاء بيت القس بأغصانها المديدة المنفرعة ! ولكم كان لديها ان يقترن ذلك بصـــورة القس بأغصانها المديدة المتفرعة ! ولكم كان بديعا ان يقترن ذلك بصـــورة معلم المدرسة كثيرا ما يذكر اسمه الذي تلقاه عن جده . وكان يطيب لنا ان نمجد ذكراه تحت ظلال هذه الاشجار العتيقة . وقد ذكر لنا معلـم المدرسة بالامس ، والدموع في عينيه ، ان هذه الاشجار قد قطعت . اي والله اسقطت على الارض ! ولكم كنت خليقا ـ من فرط حنقي ـ ان اقتل الوحش الدميم الذي وجه اليها الضربة الاولى . ولا مفر لي من تحمل ما حدث !.. انا الذي ـ لو كانت مثل هذه الاشجار في فنائـي ـ لكنت خليقا اذا ما ماتت احداها من فرط الشيخوخة ان ابكي من شدة الاسى. ولكن بقي لي شيء من العزاء . وهكذا العاطفة ! ان القرية بأسرها تتذمر من هذه النكبة ، وآمل ان تدرك زوجة القس قريبا من انقطاع هدايـا القرويين مبلغ ما اصاب مشاعر اهل الناحيةمن تأذ لما حدث لهذه الاشجار، ففد كانت هي مرتكبة هذه الفعلة ـ اعني زوجة القس الجديد (لان شيخنا الطيب قد رحل عن الدنيا) ـ وهي مخلوقة طويلة عليلة تغض النظر عن العالم ويغض العالم ـ وبحق ـ نظره عنها كل الاغضاء . وتتظاهر هـذه المخلوقة بأنها متعلمة ، وتزعم انها تراجع الكتب الكنسية ، وتفيض عونها على «موضة» الاصلاحات الحديثة للمسيحية ، وهي مولعة بالخوض فـي الانتقاد والتشدق بالاخلاقيات وتهز كتفيها ازدراء اذا ما أثار احد موضوع «الحماسة» على مذهب «لافاتر» (شاعر سويسري صوفي له مؤلفات في الفلسفة واللاهوت) . وصحتها محطمة ، لكثرة ما حرمت نفسها من كل متعة تمت بصلة الى العالم الدنيوي . وما كان سوى هذه المخلوقة خليقا ان يقطع اشجار لوزي الجليلة الجميلة ! ولن أصفح عن هذه الفعلة . والان اسمع مبرراتها : ان الاوراق المتساقطة تجعل الفناء رطبا قذرا ، والاغصان تعترض ضوء الشمس ، والغلمان يرشقون الثمار بالحجارة عندما تنضج ، فيؤثر صوت هذه الجلبة في اعصابها ويعكر عليها صفو تأملاتها ، وهي تزن في رأسها صعوبات «كنيكوت» (عالم التوراة الانجليزي) ، وأضرابه ، مثل «سيملر» و«ميخايليس» .

ولما وجدت كل الابروشية ـ ولاسيما المسنين ـ مستائين ، سألتهم لماذا يسمحوا بذلك ، فقالوا لي :

ـ أواه يا سيدي ! وما حيلة امثالنا من الفلاحين الفقراء اذا اصدر ناظر الزراعة امره ؟

بيد ان شيئا ما وقع على كل حال ، فناظر الزراعة والقس (اللذين خطر لهما ان يحصلا ولو مرة واحدة على بعض الفائدة من نزوات زوجته) اعتزما ان يقسما خشب الاشجار فيما بينهما ، ولكن الادارة المالية للمقاطعة سمعت بالحادث ، فأثارت دعوى قديمة بملكية الارض التي كانت فيها الاشجار ، وقررت بيع الاخشاب لمن يدفع فيها اكبر ثمن . وهكذا لم تزل الاشجار ملقاة على الارض . ولو كنت انا العاهل لعرفت كيف أتعامل معهم جميعا : القس ، وناظر الزراعة ، والادارة المالية . اقول لو كنت العاهل ؟ اني لخليق عندئذ ان اعير شيئا من اهتمامي للاشجار التي تنمو في الريف .

١٠ اكتوبر

مجرد النظر الى عينيها السوداوين يملؤني بالسعادة ! وما يحزنني ان البرت لا يبدو سعيدا بالقدر الذي كان يتمناه . وبقدر ما كنت خليقا ان اكون لو انني ... — لست احب هذا التلعثم — ولكنني لا استطيع ان أعبر عما بنفسي على غير هذا المنوال ، ولعلني قد ابنت عن خاطري بما فيه الكفاية .

١٢ اكتوبر

لقد حل «اوسيان» في قلبي محل هوميروس . واي عالم هذا الذي يحملني اليه هذا الشاعر الصداح ! الى حيث أجوب براري لا تشقها دروب ، تحف بها دوامات رياح مندفعة ، حيث نرى على ضوء القمر الواهن ارواح أسلافنا ، ونصغي من اعالي قمم الجبال ، وسط هدير الشلالات المنحدرة منها ، الى أصواتهم الشاكية صادرة من الكهوف والمغاور العميقة ، والى التأوهات المولهة الحسرى لفتاة تجود بنفسها فوق قبر كسته الاعشاب والطحالب يثوي فيه محارب كان يعبدها حبا . والتقى في تلك المجاهل بذلك الشاعر الصداح ذي الشعر الفضي ، يرتاد الوهاد والوديان ، باحثا عن آثار أقدام آبائه ، ولكن وا حر قلباه ! انه لا يعثر الا على ارماس قبورهم ! ثم يتأمل البطل ضوء القمر الشاحب وهو يغرب غائصا في امواج البحر الطامي ، فتنبثق في ذهنه ذكريات الايام الخوالي .. ذكريات تلك الايام التي كانت مخاطرها تقوي من بأس

الشجعان ، وتشد من ازرهم ، وكان ضوء القمر حينئذ يسطع على سفينة محملة بالاسلاب ، عائدة تهز رايات النصر والفخار . وعندما اقرأ في اساريره الاسى العميق ، وأرى مجده الغارب ينزل متهالكا الى القبر ، وهو يستنشق بهجة جديدة تهز القلب لا شك اتحاده بمحبوبته ، فيلقي نظرة على الارض الباردة ، وعلى العشب الطويل الذي سرعان ما يغطيه ، وعندئذ يهتف :

ـ سيأتي ذلك الرحالة .. سيأتي ذلك الذي رأى من قبل جمالي .. ولسوف يسأل : «اين الشاعر الصادح .. اين سليل «فنجال» المجيد ؟» ولسوف يسير فوق قبري ، وعبثا يبحث عني !

وحينئذ ـ يا صديقي ـ اكاد امتشق من فوري ـ شأن الفارس الصادق النبيل ـ حسامي ، لأخلص من براثن الموت اميري هذا ، وأطلق عندئذ روحي لتتبع خطا ذلك الشبيه بالالهة الذي حررته يدي !

١٩ اكتوبر

وا حسرتاه ! يا للخواء ـ يا للخواء المخيف الذي احسه في صدري ! لكم يخطر لي احيانا ، ليته يتاح لي مرة واحدة فحسب ... ان اضمها الى فؤادي ، اذن لكان هذا الخواء المقيت المخيف خليقا ان يمتلىء !

٢٦ اكتوبر

اجل يا فلهلم ، اني اشعر عن يقين ، ويزداد يقيني هذا يوما بعد يوم ، ان وجود اي كائن ليس له الا القليل جدا من القيمة وقد وصلت الان صديقة لزيارة شارلوت ، فانسحبت الى الجناح المجاور ، وتناولت كتابا ، ولما الفيت نفسي غير قادر على القراءة جلست لاكتب . وقد سمعتهما تتحدثان بصوت خفيض ، في أمور شتى لا اهمية لها ، وتتبادلان اخبار المدينة . فهذه على وشك الزواج ، وتلك مريضة ، مريضة جدا ـ ينتابها سعال جاف ، ووجهها يزداد في كل يوم نحولا ، وتصيبها في بعض الاحايين نوبات ... وقالت شارلوت :

ـ ن ... مريض جدا أيضا ...

وردت عليها الاخرى قائلة :

ـ لقد بدات أطرافه في التورم فعلا .

وعلى الفور خفت بي اجنحة خيالي الى مخادع المرضى ، وهأنذا اراهم يكافحون الموت ، بكل العذاب والالم والفزع ... وهاتان المراتان ـ يـا فلهلم ـ تتحدثان في هذا كله بعدم الاكتراث الذي يذكر به احدنا و فـــاة شخص غريب عنه . وحينما انظر حولي في الحجرة التي انا بها الان ، وارى معدات شارلوت ملقاة امامي ، وكتابات البرت ، وكل تلك القطع من الاثاثات المألوفة لي ، حتى تلك المحبرة التي أستخدمها الان ، واتذكر من انا في تلك الاسرة ... انني لديهم كل شيء ، فصديقاي هذان يقدراني ، وكثيرا ما اسهم في سعادتهما ، ويخيل الي ان قلبي لا يستطيع ان يخفق بدونهما . ومع هذا ـ اذا كتب علي او قدر لي ان اموت ، واخرج مـــن وسط الدائرة ـ هل تراهما يشعران ـ واذا شعرا فالى اي مدى ولأي مدة من الزمن يدوم شعورهما بالفراغ الذي تركه فقدي في حياتهما ؟ كم ترى يطول هذا ..! اجل هذا هو هوان قدر الانسان ، انه حيث يشعـــر بوجوده اقوى شعور ، وحيث له اقوى وأفعل الاثر ، حتى في ذاكـــرة محبوبته وفي قلبها .. هنا ايضا لا مفر له من الزوال والتلاشـــــي ... والتلاشي السريع !

٢٧ اكتوبر

اني لخليق ان امزق صدري غيظا كلما فكرت في ضآلة قدرة كل منا على التأثير في مشاعر الاخر . فما من احد يستطيع ان يوصل الـــى مشاعر الحب والفرح والنشوة والحبور التي لا امتلكها بطبيعتي .. ومع ان قلبي قد يتوهج بأقوى احاسيس المودة والاعزاز الا انني لن استطيع ان أسعد امرءا لا نصيب له بفطرته من عين هذه المشاعر الحارة .

٢٧ اكتوبر ، مساء

لدي الكثير جدا ، ولكن حبي اياها يستوعب ذلك كله ، لدي الكثير جدا ، ولكنني بدونها لست املك شيئا .

٣٠ اكتوبر

لقد اوشكت مائة مرة ان أقدم على عناقها . يا للسماء ! اي عذاب لي

ان ارى بعيني راسي كل هذه الملاحة تمر بنا ، ثم تعاود المرور مـــــرارا وتكرارا . ثم لا نجسر على الامساك بها ! والامساك بالاشياء غريزة طبيعية في البشر . افلا يلمس الاطفال كل ما يرونه بأعينهم ؟ وانا ..!

٣ نوفمبر

اشهدي يا سماء كم من مرة رقدت في فراشي وبي رغبة ، بـــل ويحدوني الامل ألا استيقظ من رقادي ذاك ابدا ! وفي الصباح ، عندمـا أفتح عيني ، وارى الشمس مرة اخرى ، أشعر بالتعاسة . ولو كنت امرءا كثير النزوات غريب الاطوار لكنت حريا ان القي باللوم على كاهـــل الطقس . او على بعض من اعرف ، او على خيبة امل شخصيته ، واعد ذلك مسئولا عن سخطي ، وبذلك لا يقع هذا العبء الباهظ ــ عبء متاعبي واضطرابي ــ على عاتقي شخصيا . ولكن وا أسفاه ! اني لأشعر ــ بكل حزن ــ انني وحدي مصدر جميع احزاني واشجاني ، كما كانت نفسي من قبل مصدر جميع مسراتي وافراحي . فانا عدو نفسي الحقيقي . الست انا عين ذلك المرء الذي أستمتع يوما ما بالسعادة المفرطة . فكان يرى في كل خطوة وكأن الفردوس قد فتح ابوابه له ، فكان قلبه يتفتح دوامــــا للعالم اجمع ؟ وهذا القلب بعينه قد مات الان ، وما من احساس يمكن ان يبعثه من مواته . عيناي جامدتان ، وحواسي لم تعد ترويها دموعي الندية ، وكذلك ايضا اخذ مخي يذوي ويتآكل .

ما أشد ما أعاني لانني فقدت سحر حياتي الاوحد ، فتلك القـــوة الفعالة الناشطة القدسية التي كانت تخلق العالم من حولي ، لم يعد لها وجود . وعندما أطل من نافذتي الى التلال النائية ، وارى شمس الصباح تشق طريقها وسط أستار الضباب ، وتضيء الريف من حولي ، ذلـــك الريف الذي لم يزل متشحا بالصمت والسكينة ، في حين يتدفق الجدول الرقراق بلطف بين اشجار الصفصاف التي نفضت اوراقها ، وعندمـــا تعرض الطبيعة حفل روائها وزينتها امام انظاري ، وتعجز هذه الروائع عن ابتعاث دمعة سرور واحدة من قلبي الذابل ، عندئذ اشعر انني اقف امام السماء وقفة الرافض الشرير الجامد ، جامد الحس والفؤاد ، لا تحرك مني هذه الامجاد ساكنا .

وما اكثر ما أجثو حينئذ راكعا على الارض ، وابتهل الى الله اسأله نعمة الدموع ، على نحو ما يبتهل الزارع المنكود في زمن القحط والجفاف

ان تتحنن عليه السماء بالانداء التي تنقع غلة قمحه المهدد بالفناء عطشا .
ولكنني أشعر ان الله لا يفيض ضوء شمسه ولا وابل مطر استجابة لابتهالاتنا . واها لتلك الايام الخوالي التي تعذبني ذكرياتها الان ! لماذا كانت تلك الايام بكل هذه العذوبة والهناء ؟ ذلك اني حينئذ كنت انتظر بصبر على هداها بركات الله الابدية ونعماءه ، وكنت اتلقى عطاياه بأعظم مشاعر العرفان التي يفيض بها قلب شكور ..!

٨ نوفمبر

انبتني شارلوت على تطرفي ، ولكنه كان تأنيبا حافلا بالرقة والطيبة! فقد دابت في المدة الاخيرة على شرب الخمر اكثر من ذي قبل . فقالت لي :
ـ اياك وهذا الاكثار . فكر في شارلوت !
فأجبتها :
ـ أفكر فيك ؟ ابحاجة انت الى ان توصيني بهذا ؟ افكر فيك حقا ! انا لا أفكر فيك ، لانك دائما وابدا ماثلة امام روحي ؟ وفي هذا الصباح بالذات جلست على البقعة التي نزلت فيها ـ منذ بضعة ايام ـ من العربة ، و ...
وعلى الفور غيرت الموضوع لتمنعني من المضي فيه اكثر من هذا . ان جميع طاقاتي يا صديقي العزيز منهكة ، وفي وسعها ان تصنع بي ما تشاء .

١٥ نوفمبر

اشكرك يا فلهلم على تعاطفك القلبي ، ونصحك الممتاز ، وأناشدك الهدوء ، ودعني لعذابي . فلم تزل لدي ـ برغم تعاستي ـ قدرة كافية على التحمل . وأنا أوقر الدين واجله ، وانت تعرف هذا . وأعرف ان الدين قادر على منح القوة للضعفاء ، واراحة المنكوبين بالارزاء ، ولكن هل للدين اثر متساو لدى الجميع بلا استثناء ؟ فكر في هذا الكون المترامي ، وسترى الالوف ممن لم يكن لتأثير الدين عندهم وجود قط ، سواء بشروا به او لم يبشروا ، فهل من الحتم اذن ان يكون له عندي اثر . او ليس المسيح نفسه هو القائل انه انما يؤمن به من اعطاهم «الاب» له فحسب ؟

فهل انا ممن اعطوا له ؟ ماذا لو احتفظ بي «الاب» لنفسه ، كما يوحـــي الي بذلك قلبي احيانا ؟

وارجوك الا تسيء تأويل قولي هذا ، ولا تستخرج من كلماتي البريئة ما يدل على الزراية بالدين ، فأنا اسكب بين يديك روحي بأسرها . ولقد كان الصمت احب الي ، ولكني لست بحاجة الى التراجع امام موضوع لا يعرف عنه الا القليلون اكثر مما اعرف شخصيا . ما مصير الانسان وما قدره ، اللهم الا ان يملأ كأس عذابه ومعاناته ، وان يتجرع ما قدر له من المرارة ؟ واذا كانت هذه الكأس نفسها قد بدت مريرة للمسيح وهو فـي صورة البشر ، فلماذا أتكلف كبرياء حمقاء وانعت هذه الكاس بالعذوبة ؟ لماذا ينبغي ان اخزي من التراجع عند اللحظة الرهيبة عندما ترتجف روحي بين الوجود والعدم ، وعندما تضيء ذكرى الماضي ، كوميض البرق ، هاويه المستقبل المظلمة ، فاذا بكل شيء ينحل من حولي ، واذا العالم كلـــه يتلاشى ؟

اليس هذا هو صوت مخلوق تجاوز ضيقه وعناؤه كل حد ، وخذلته ذاته ، حتى بات على وشك الوثوب ليغوص في لجة الفناء الذي لا مناص منه ، وهو ينادي متأوها من اعماقه ومتحسرا على قوته المتداعية :

ــ الهي ! الهي ! لماذا تخليت عني ؟

وهل ينبغي ان اشعر بالخزي وأنا اتفوه بهذه العبارات نفسها ؟ اينبغي لي الا ارتجف امام مصير كانت له رهبته ومخاوفه حتى بالنسبة للمسيح ؟

٢١ نوفمبر

انها لا تحس ولا تعلم انها تعد سجنا سوف يدمرنا كلينا . وانا اشرب بافراط من الجرعه التي سيكون فيها هلاكي . واي معنى لهذه النظرات الفائضة بالرقة والحنان التي كثيرا ــ كثيرا ؟ كلا . ليس كثيرا ، بـــل احيانا ــ ما ترتضي بها ، ولهذا الرضا الذي تصغي به للعواطف اللا ارادية التي كثيرا ما تند عني وللشفقة الحانية التى تظهر على محياها لما اعانيه من عذاب ؟

بالامس ، عندما هممت بالانصراف ، امسكت بيدي وقالت :

ــ وداعا يا عزيزي فيرتر .

عزيزي فيرتر ! لقد كانت هذه اول مرة نادتني فيها بيا «عزيزي» ، ففاص الصوت في اعماق فؤادي . وكررته مائة مرة . وفي الليلـــة

الماضية ، وأنا ذاهب الى فراشي ، تحدثت الى نفسي في امور شتى ، ثم قلت فجاة :

ـ طابت ليلتك يا عزيزي فيرتر .

ولم يسعني عندئذ الا ان اضحك من نفسي .

٢٢ نوفمبر

لا يمكنني ان ادعو الله ان يتركها لي ، وهي التي تبدو في كثير من الاحيان منتمية الي . ولا يمكنني ان ادعو الله :

ـ اعطنيها !

لانها امراة اخر . وبهذا الاسلوب اغلب المرح على متاعبي . ولو كان عندي متسع من الوقت لكتبت اليك سلسلة ابتهالات على منوال هــذه النقائض .

٢٤ نوفمبر

انها على احساس بعذابي . وهذا الصباح اخترقت نظرتها صميم روحي . فقد وجدتها بمفردها . وكانت صامتة ، وراحت تتفحصني بصورة مباشرة ، ولم اعد ارى في محياها مفاتــن الجمال ولا نــار العبقرية .. فكل ذلك كان قد اختفى . بيد اني تأثرت لديها بسيما أمعن تأثيرا في النفس : بنظرة تدل على اعمق التعاطف وارق الرحمة . فلماذا خفت ان القي بنفسي عند قدميها ؟ لماذا لم أجسر على احتضانهــا بين ذراعي ، لاجيبها بالف قبلة ؟

ولجأت الى البيانو كي تخفف عما بها ، وبصوت خفيض عذب راحت تصاحب الموسيقى بأنغام مستحبة ، ولم أر في حياتي شفتيها بهــذه الحلاوة : فهما لا تكادان تنفرجان الا بما يسمح بالتغريد الــذي يتلقى اهتزازات المعزف ، وليرجعها من فمها ! من لي بالتعبير عن مشاعــري عندئذ ! لقد غلبت على امري ، وانحنيت فهمست اليها بهذا النذر :

ـ ايتها الشفتان الجميلتان اللتان تحرسهمــا الملائكة ، لن احاول تدنيس نقائكما بقبلة !

ومع هذا يا صديقي كم أتمنى ـ وان كان قلبي معتما بالشك والتردد ـ لو استطعت ان اذوق هذا الهناء ، ثم اموت بعدها تكفيرا عن اثمي ! ولكن اي اثم ؟

٢٦ نوفمبر

كثيرا جدا ما اقول لنفسي :
ــ انت وحدك التعس ، اما سائر ابناء الفناء فسعداء ، وما من احد فيهم مني بمثل كربي وضائقتي .
وعندئذ اقرا نصا من شاعر قديم ، ويخيل الي اني فهمت قلبي . الا ما اكثر ما ينبغي لي ان اتحمله ! افهل كان البشر قبلـــي بمثل هـــــذه التعاسة ابدا ؟

٣٠ نوفمبر

لن اعود سيرتي الاولى ابدا ! فأينما توجهت حدث ما يشتتني بفعـل القدر . فاليوم ــ واها لقدرنا ومصيرنا ! واها للطبيعه البشرية !
قبيل وقت الغداء ذهبت لأتمشى على شاطىء النهر ، لانني لم اجد اي شهية للطعام . وبدا كل ما حولي واجما ، وهبت ريح شرقية باردة رطبة قادمة من الجبال ، وانتشرت فوق السهل سحب ثقيلـــة سوداء . ولمحت عن بعد رجلا في معطف رث بال ، كان يتجـــول بين الصخور ، ويبدو انه كان يفتش عن نباتات . فلما اقتربت منه التفت الى مصـــدر الصوت ، فرايت له سحنة تثير الاهتمام ، ترين عليها الكآبة ، تخالطهـا طيبة بادية . وكان ذلك اهم ما يميز سيماه . وكان شعره الاسود الطويل مقسوما من الوسط ، ويتهدل على كتفيه . ولما كان زيه يدل على رجل من الطبقة الدنيا ، فقد ظننت انه لن يستاء ان سألته عما يصنع ، وعندئذ سألته عم يبحث . فأجابني بزفرة عميقة انه يبحث عن الازهار ، ولكنه لا يجد منها شيئا ، فقلت له باسما :
ــ ولكن هذا ليس اوانها !
فأجابني وهو يدنو مني :
ــ بل هناك الكثير منها جدا ، ففي حديقتي ورد وازهار على نوعين : احداهما اعطانيه ابي ، وتنمو بكثرة وغزارة كالاعشاب . ولي يومان أبحث عن هذين النوعين ، ولا اجدهما . وها هناك في حديقتي ازهار صفراء وزرقاء وحمراء ، وهناك ايضا ازهار اخرى بديعة جدا ، ولكني لا اجد شيئا منها هنا .
فلاحظت غرابة اطواره ، ولذا سألته بلهجة تدل على عدم الاكتراث ما

الذي ينوي ان يصنع بأزهاره ، فاكتسى محياه ابتسامة غريبة ، ورفع اصبعه الى فمه ، تعبيرا عن امله في الا افشي سره ، ثم اخبرني انه وعد حبيبته ان يجمع لها باقة زهر صغيرة . فقلت له :

ـ عظيم جدا .

فأجابني :

ـ اوه ! انها تمتلك اشياء اخرى كثيرة ايضا ، فهي ثرية جدا .

ـ ومع هذا فهي تحب باقاتك الصغيرة .

فهتف :

ـ اوه ! كم لديها من جواهر وتيجان !

فسألته من هي . فقال :

ـ آه لو نقدني مجلس طبقات الامة راتبي ! اذن لغدوت انسانا اخر . وا اسفاه ! لقد غبر علي وقت كنت فيه سعيدا جدا ، ولكن هذا الوقت مضى وانقضى ، وانا الان ...

ورفع عينيه الزجراجتين الى السماء . وسألته :

ـ اكنت سعيدا يوما ما ؟

فأجابني :

ـ لكم اتمنى لو ظللت هكذا حتى الان ! فقد كنت يومئذ أشد خلق الله رضا وحبورا .

وعندئذ صاحت امراة عجوز كانت قادته نحونا :

ـ هنري ! هنري ! اين انت ؟ اقد كنا نبحث عنك في كل مكان . تعال للغداء .

فسألتها وأنا اتوجه اليها :

ـ اهو ابنك ؟

فقالت :

ـ نعم . انه ابني المسكين العاثر الحظ . لقد انزل الله بي نكبة كبرى .

فسألتها : اله زمن طويل هكذا ، فأجابتني :

ـ لقد اصبح بالهدوء الذي تراه به الان منذ ستة شهور ، واشكر السماء لانه شفي الى هذا الحد ، فقد ظل سنة بأكملها يهذي ، مكبلا بالقيود في مارستان . اما الان فهو لا يؤذي احدا .. بيد انه لا يتكلم الا عن الملكات والملوك . وكان قبل ذلك فتى طيبا جدا وهادئا ، يعينني على نفقات الحياة . كان كاتبا جميل الخط جدا ، ولكنه على حين غرة أصيب بالاكتئاب والمت به حمى شديدة الوطأة ، فتشتت ذهنه ، وصار على ما

تراه الان . آه لو قلت لك يا سيدي ...

فقاطعتها وسألتها عن الحقيقة التي كان يتباهى بأنه كان سعيدا جدا فيها ، فصاحت وهي تبتسم في اشفاق :

ــ يا للفتى المسكين ! انه يعني ذلك الوقت الذي كان فيه مختلط العقل تماما ، وهو لم يكف عن التحسر على تلك الحقبة ، حينما كان في المارستان ، فاقد الوعي والرشد بكل شيء .

وصعقت لهذه الاجابة ، ووضعت في كفها قطعة نقد ، وأسرعت بالابتعاد .

وفي طريقي مسرعا الى المدينة رحت اقول لنفسي :

ــ لقد كنت سعيدا ! كأشد ما يكون البشر رضا وحبورا !

يا اله السماء ! أهذا هو قدر الانسان ؟ الا يكون سعيدا الا قبل اكتسابه العقل او بعد فقدانه ؟ يا للمخلوق العاثر الجد ! ومع هذا اجدني اغبطك على مصيرك ، واغبط الوهم الذي انت فريسته . فأنت تذهب جذلانا كي تجمع الازهار لأميرتك في الشتاء ، وتحزن عندما لا تجد منها شيئا ، ويعجزك ان تفهم لماذا لا تنمو الازهار في الشتاء . اما انا فأتجول هناك بلا حبور ، وبلا امل ، وبلا غاية ، واعود كما ذهبت . وتتوهم اي رجل انت خليق ان تغدو لو ان مجلس طبقات الامة نقدك راتبك . يا لك من امرىء سعيد يستطيع ان يعزو شقاءه الى سبب دنيوي ! فأنت لا تدري ، ولا تشعر ان شقاءك نابع من قلبك المشتت المخبول وعقلك المختل، وانه ما من قوة من قوى الارض يمكن ان تبرئك منه .

الا فليمت محروما من كل عزاء ذلك المرء الذي يمكن ان يسخر ويهزأ من المرضى الذين ينزحون الى ينابيع الصحة النائية ، حيث لا يجدون في الغالب الا مرضا أثقل وطأة وموتا اشد ايلاما ، او الذي يمكن ان يتهلل سخرية من ضمير الآثم القائظ الذي يلتمس الراحة من تعاسته فيذهب حاجا الى القبر المقدس ، مع ان كل خطوة يخطوها بقدميه الجريحتين فوق الدروب الوعرة غير المطروقة تسكب البلسم في روحه المضطربة ، كما ان مشاق الرحلة في النهار تجلب لقلبه المعني راحة في هداة الليل . اتجسرون ايها المنددون العيابون على تسمية هذا كله حماسة جوفاء ؟ حماسة ! يا الهي ! انت ترى دموعي . وأنت قد قسمت لنا نصيبنا من التعاسة : افهل كتب علينا ايضا ان يضطهدنا اخوتنا ، ويحرمونا من العزاء ومن ثقتنا بك ومن محبتك ورحمتك ؟ لان ثقتنا بفعل العشب الشافي او بتأثير الكرمة ان هو الا الاعتقاد بك ، يا من يستمد منك كل ما حولنا قواه الشافية

والمقوية . ايها «الاب» الذي لست اعرفه ـ يا من تكرمت فملأت قلبي وقتا ما ، ولكنك الان تخفي وجهك عني ـ ادعني اليك مرة اخرى ، ولا تعتصم بالصمت ! ان صمتك لن يعوق روحا تتعطش اليك . فـأي اب يمكن ان يغضب من ابنه لانه استدار اليه فجاة ، وسقـط على عنقه ، هاتفا :

ـ هانذا قد عدت اليك يا ابي ! اصفح عني ان كنت قد تعجلت الرحلة اليك ، ورجعت قبل الموعد المضروب ! ان العالم هو بعينه في كل مكان: مسرح هو للالم واللذة والجزاء ، ولكن ما حصاد هذا كله ؟ انـي لست سعيدا الا حيث تكون انت ، وفي حضرتك وحدك يرضيني ان أعاني او أفرح .

انت ايها الاب السماوي حقيق ان تطرد مثل هذا الابن من حضرتك ؟

اول ديسمبر

ان الرجل الذي كتبت اليك عنه يا فلهلم ـ ذلك الرجل المضبوط على نكباته ـ كان سكرتيرا فيما مضى لوالد شارلوت ، وكان هواه التعس لها ، الذي كان يخفيه ، ثم اماط اللثام عنه في النهاية ، هو الذي تسبب في طرده من عمله ، فأدى به ذلك الى الجنون . فكر ـ وانت تقرأ بامعان هذه الحكاية الساذجة ـ اي انطباع تركته في نفسي ! ولكن القصـة بحذافيرها رواها لي البرت بكل الهدوء الذي لعلك تقرأها به .

ديسمبر

لقد انتهى امري ، ولم اعد اطيق هذا الحال اكثر من هذا . لقد كنت جالسا اليوم مع شارلوت ، وهي تعزف على البيانو مقطوعـات بديعة ، بتعبير عميق جدا . وكانت اختها الصغيرة تلبس دميتها ثوبها وهي جالسة في حجري . وطفرت الدموع الى عيني ، وانحنيت الى الامام ونظرت الى خاتم زواجها ، فتساقطت عبراتي ، وعلى الفور شرعت تعزف تلك المقطوعة الاثيرة القدسية التي كثيرا ما سحرتني . وشعرت بالراحة لتذكر الماضي، في تلك الايام الخوالي عندما كانت هذه المقطوعة مألوفة لي ، وعندئـذ تذكرت كل الاحزان والاحباطات التي تحملتها من ذلـك الحين . ورحت اذرع الحجرة بخطوات سريعة ، وغص قلبي بمشاعر اليمة . وأخيرا ذهبت

اليها ، وهتفت بها في لهفة :
ــ بحق السماء ، لا تعرفي هذه المقطوعة بعد الان !
فتوقفت ، ونظرت الي نظرة ثابتة ، ثم قالت بابتسامة غاصت في اعماق قلبي :
ــ أمريض انت يا فيرتر .. فاني ارى احب طعامك اليك قد صار بغيضا . فأرجوك ان تذهب ، ليهدأ جأشك .
فانتزعت نفسي من مجلسها انتزاعا وانصرفت .
انت مطلع يا الهي على عذابي ، فاجعل له نهاية !

٦ ديسمبر

لكم يراودني طيفها ! فهي ملء روحي كلها يقظانا ونائما ! فما ان اغلق عيني حتى اجد عينيها السوداوين مطبوعتين ها هنا في مخي حيث تتركز أعصاب البصر ، ها هنا ، ولست أدري كيف اصفها ، وكل ما اعرفه انني متى اغمضت عيني وجدتهما مرتسمتين امامي ، داكنتين كالهاوية ، مفتوحتين ، تبتلعان كل حواسي !
وما الانسان ــ ذلك الشبيه بالاله ؟ افلا تخذله قواه حين نكون أحوج ما يكون اليها ؟ وسواء احلق في الحبور ، او غرق في الاحزان ، أترى له من قدره مفر ؟ وبينما يحلم انه قابض على الابدية ، أفلا يشعر باضطراره للعودة الى الوعي بوجوده البارد الرتيب ؟

الكتـاب الثـالث

من الناشر الى القارىء :

مما يؤسف له حقا انه تعوزنا الوثائق الاصلية عن الايام الاخيرة فـــي حياة صاحبنا ، ولذا نجد انفسنا مضطرين لقطع اتصال سياق رسائله ، وتعويض هذا النقص عن طريق السرد والرواية .

وقد رأيت من واجبي ان اجمع المعلومات الدقيقة من افواه اشخاص ذوي دراية بتاريخه . والقصة نفسها بسيطة ، وكل الروايات متفقة ، اللهم الا في تفصيلات غير هامة ، وان كانت الآراء والاحكام متباينة فيما يتعلق بطباع الاشخاص الذين يأتي ذكرهم فيها .

فليس امامنا اذن الا ان نروي بأمانة تلك الوقائع التي اتاح لنا الجهد الدائب ان نجمعها ، وأن نقدم خطابات الفقيد الراحل ، مع التنبه بصفة خاصة الى اي شذرة صدرت من قلمه ، ولاسيما انه من العسير اكتشاف الدوافع الحقيقية والصحيحة لأناس ليسوا من الطراز الشائع بين البشر.

لقد ضربت جذور الحزن والاسى والسخط في مسارب عميقة مـن نفسي فيرتر ، وأضفت سماتها على كيانه كله ، واختل تناسق تفكيره ، وكان للاثارة المتواصلة والاهتياج العقلي اللذين اضعفا قواه الطبيعية اسوأ الآثار والنتائج على نفسيته ، مما صيره في نهاية المطاف فريسة اعياء كان

يكافحه مجهود أشد ايلاما مما كان يبدو عليه في الظاهر ، حتى وهو يناضل ضد نكباته الاخرى . فقد اضعف قلقه النفسي ملكاته الجيدة المتباينة ، وسرعان ما انتهى الى الكآبة والانقباض من صحبة الناس ، فهو دائما حائر غير موفق في افكاره ، مع تزايد تعاسته وشقائه . وهذا على الاقل هو رأي اصدقاء البرت . ويؤكدون في الوقت نفسه ان طبع البرت لم يحدث فيه ادنى تغير ، فظل هو بعينه الشخص الذي احبه فيرتر وبجله واحترمه منذ البداية . وكان حبه لشارلوت بغير حدود ، وكان فخورا بها ، راغبا في ان يقر لها كل انسان بأنها انبل المخلوقات . افهل يلام مع هذا لانه اراد ان يجنبها كل مظهر من مظاهر الريبة ؟ او لانه لم يكن مستعدا ان يشارك في كنزه الثمين هذا احدا سواه ، ولو للحظة واحدة، ولو بصورة بريئة كل البراءة ؟ وقد ثبت ان البرت كثيرا ما كان ينسحب من جناح زوجته اثناء زيارات فيرتر ، بيد ان ذلك لم يكن عن نفور من صديقه ، بل عن احساس بأن وجوده كان يثقل على فيرتر .

وكان من عادة والد شارلوت — الذي يلازم البيت لاعتلال صحته — ان يرسل اليها عربته كي تقوم بنزهات في الانحاء المجاورة ، وذات يوم كان الطقس بالغ العنف ، فغطى الثلج الريف بأكمله ، وتوجه فيرتر لزيارة شارلوت في الصباح التالي كي يعود بها الى البيت اذا كان البرت متغيبا. ولم يكن الطقس الجميل يترك لديه الا اثرا ضئيلا بسبب اضطرابه النفسي، فثمة عبء ثقيل الوطأة يرين على روحه ، بعد ان هيمنت الكآبة عليه ، فلم تعد نفسه تعرف التفير الا من خاطر اليم الى خاطر اليم اخر .

ولما كان قد صار منقطع الصلة بالسلام الداخلي ، لذا غدت احوال الناس مصدرا مستمرا للاضطراب والكرب وكان يعتقد انه كدر صفو سعادة البرت وزوجته . وفي حين راح يلوم نفسه بعنف على هذه الجريرة ، شرع ايضا يكن في سريرته بغضا خفيا لالبرت .

وكانت افكاره تتجه احيانا الى هذه النقطة ، فيكرر لنفسه في سخط لا يحسن كتمانه :

— نعم ، نعم . هذا بعد كل شيء هو مدى ذلك الحب الحنون الغالي العطوف المتعاطف ، وذلك الوفاء الهادىء الابدي ! ما هذا الذي اشهده ان لم يكن هو الشبع وعدم الاكتراث ؟ اليس كل ارتباط تافه القيمة اشد اجتذابا له من زوجته الفاتنة الحسناء ؟ اتراه يعرف قيمة سعادته ؟ ايغليها بالقدر الذي تستحقه ؟ انه يملكها ، هذا صحيح — وانا اعرف هذا ، مثلما اعرف ما هو اكثر منه بكثير — وقد تعودت التفكير في انه سيدفع

بي الى الجنون ، او لعله مزمع ان يقتلني . فهل صداقته لي سليمة لا آفة فيها ؟ أليس يرى في تعلقي وارتباطي بشارلوت افتئاتا على حقوقه ؟ الا يعد اهتمامي لها توبيخا صامتا له ؟ انا اعرف، واحس فعلا ، انه يبغضني، وانه يتمنى غيابي ، وان حضوري بغيض الى نفسه .

وكثيرا ما كان يتوقف وهو في طريقه الى زيارة شارلـــوت ، ويلبث ساكنا في موضعه نهبا للشك ، وتبدو عليه الرغبة في العودة ، بيد انه مع هذا يمضي في طريقه اليها . ويصل في النهاية الى مقر الصيد غارقا في هذه الخواطر والمناجاة التي وصفناها الان ، موزع النفس ...

وذات مرة دخل البيت ، وسأل عن شارلوت ، فلاحظ ان اهل الدار كانوا في حالة ارتباك غير مألوف . وقال له الولد ان كارثة فظيعة وقعت في فالهايم ... فقد قتل احد الفلاحين ! بيد ان ذلك لم يترك في نفسه الا اثرا ضئيلا . ودخل الحجرة فوجد شارلوت مشتجرة في جدل مـــع ابيها الذي أصر ــ رغم علته ــ على الذهاب الى مسرح الجريمة كي يجري التحقيق . وكان المجرم مجهولا ، وقد عثروا على الضحية ميتا على باب مسكنه هذا الصباح . وثارت الشكوك ، فالقتيل كان في خدمة ارملة ، والشخص الذي سبقه في شغل هذا العمل كان قد فصل منه .

وما ان سمع فيرتر هذا النبأ حتى صاح باهتياج :

ــ أهذا ممكن ؟ لا بد ان اذهب الى موضع الحادث ، لا استطيع الابطاء لحظة واحدة !

وأسرع فعلا الى فالهايم ، وانتعشت في ذاكرته جميع التفصيلات ، ولم يخالجه شك في ان يكون القاتل هو بعينه ذلك الرجل الذي كثيرا ما تحدث اليه ، وكان يهتم به اهتماما عظيما ويقدره كثيرا . ومر في طريقه بأشجار الزيزفون المعروقة ، متجها الى البيت الذي حملت اليه الجثة ، فثارت مشاعره عندما وقع بصره على البقعة الاثيرة لديه . وكانت العتبة التي كثيرا ما لعب اطفال الجيران فوقها ملطخة بالدم . فقد انقلب الحب والوله وانبل مشاعر الطبيعة البشرية الى العنف والقتـــل . وها هـــي الاشجار الضخمة ماثلة هناك ، بلا اوراق ، يكسوها الثلج ، وقد ذبلت نباتات السور المحيط بفناء الكنيسة . وكانت شواهد القبور ظاهرة مـــن بين فتحات السور ، وقد تناثر عليها الثلج وكاد يغطيها .

ولما اقترب من الخان الذي كانت القرية كلها قد تجمعت امامه سمعت فجأة اصوات صياح . وكانت فصيلة من الفلاحين المسلحين قد شوهدت

تقترب من هناك، وكل واحد منهم يصيح ان المجرم قد قبض عليه ، والقى فيرتر بصره وزايله كل شك ، فلم يكن الرجل سوى ذلك الخادم ، الذي كان فيما مضى شديد التعلق بالارملة والذي كان قد التقى به في تجواله معذبا بذلك الغضب المكبوت واليأس المخامر ، على النحو الذي اوردناه آنفـا .

وسأله فيرتر وهو يدنو منه :

ـ ما هذا الذي صنعت ايها التعس ؟

فتوجه الرجل نحوه بنظراته في صمت ، ثم اجاب بهدوء شديد :

ـ لن يتزوجها الان احد ، ولن تتزوج هي احدا .

وأدخلوا الجاني بعد ذلك الى الخان ، وغادر فيرتر المكان .

وكانت نفس فيرتر قد استثيرت واهتاجت لهذا الحادث الفظيع بيد انه لم يعد يحس ما يكربه عادة من الشعور بالكآبة وعدم الاكتراث بكل ما يدور حوله . وانتابه احساس قوي بالرثاء والرحمة لهذا الرجل ، واستولـى عليه هم وقلق لا يوصف تلهفا على انقاذه من المصير الذي يوشك ان يحيق به . فقد كان يعده انسانا تكالب عليه سوء الطالع والشقاء ، فهو في نظره معذور فيما اقترف من جرم . بل كان يرى حالته شديدة الشبه بحالـة هذا المتهم . ولذا استولى عليه اقتناع بأن في وسعه ان يجعل كل انسان اخر يرى هذه المسألة في نفس الضوء الذي يراها فيه شخصيا . واصبح شديد التلهف على تولي الدفاع عنه ، وشرع يدبج خطبة بليغة لهـذا الغرض ، وفي طريقه الى مقر الصيد لم يستطع كبح نفسه عن التحدث بصوت مرتفع بنص الكلمة التي قرر ان يدلي بها الى القاضي .

وعند وصوله الى بيت الصيد الفى البرت قد سبقه الى هناك ، فارتج عليه قليلا بسبب هذا اللقاء ، بيد انه سرعان ما سيطر على رباطة جأشه، وادلى الى القاضي برأيه في حرارة بالغة . وراح القاضي يهز راسـه متشككا ، ومع ان فيرتر دافع عن اعتقاده بمنتهى البراعة وبكل الهمـة والحماسة والتصميم على استنقاذ المتهم ، الا ان القاضي ـ كما هـو متوقع ـ لم يتأثر كثيرا بهذه المناشدة ، بل على العكس قاطعه وهو مندفع في خطابه ، وجادله بجد ، بل رأى من واجبه ان يقرعه لتطوعه بالدفاع عن قاتل. وقال له انه تأسيسا على هذه السابقة يتعرض كل قانون للانتهاك وفي هذا ما فيه من تخريب الامن العام والقضاء عليه قضاء مبرما . وقال له ايضا ، انه فضلا عن هذا كله لن يستطيع شخصيا عمل شيء في مثل

هذه القضية من غير ان يعرض نفسه لاعظم المسئولية ، وان كل شيء ينبغي ان يتخذ المسار المألوف ، ويمضي على النهج المعهود .

ولكن فيرتر لم يقلع عن محاولته ، بل وعرض على القاضي أن يستر على فرار السجين ، الا ان هذا الاقتراح لقي الرفض البات على الفور . وكان البرت قد اشترك في جانب من المناقشة ، واتفق في الرأي مع القاضي ، وعندئذ هاج غضب فيرتر ، وانصرف وهو في حالة ثورة شديدة ، بعد ان اكد له القاضي اكثر من مرة انه لا سبيل الى انقاذ المتهم .

ويمكننا استخلاص مبلغ حزنه الشديد عند سماع هذا التأكيد من نص مذكرة وجدت بين اوراقه ، ولا شك في انها كتبت في تلك المناسبة :

ـ لن يمكن انقاذك ايها التعس العاثر الجد ! واني لأرى الان بوضوح انه لا سبيل الى خلاصنا !

وكانت ملاحظات البرت التي ابداها للقاضي بشأن موضوع المتهم قد حفزت مشاعر فيرتر حفزا شديدا ، وخيل اليه انه استطاع ان يتسقط في هذه الملاحظات شيئا من المرارة ازاءه شخصيا . ومع انه اذا ما أعمل فكره في روية ما كان ليغيب عن حكمه الصائب ان وجهة نظر البرت والقاضي كانت سليمة ، الا انه وجد مضاضة شديدة جدا في الاقرار بشيء من ذلك .

وقد وجدت بين اوراق فيرتر مذكرة في هذا الصدد ، تعبر عن مشاعره بصفة عامة تجاه البرت :

ـ وما جدوى تكراري باستمرار انه رجل طيب وجدير بالتقدير ، انه عذاب داخلي لي ، وانا عاجز عن ان اكون منصفا بخصوصه .

وذات مساء من امسيات الشتاء ، وقد بدا ان الجو ميال للدفء ، كانت شارلوت والبرت عائدين الى بيتهما معا ، وظلت شارلوت تتلفت فيما حولها بين الحين والحين ، وكأنها تفتقد صحبة فيرتر . وشرع البرت في الحديث عنه ، وانحى باللائمة على تحيزاته . والمع الى تعلقه العاثر الجد بها ، وتمنى لو كان في الامكان فصم صفة التعارف بينهما ، وبينه ، وأردف :

ـ اتمنى هذا لمصلحتنا ، واناشدك ان ترغميه على تغيير سلوكه نحوك ، وان يقلل من زياراته لك . فالناس نقادون لوامون ، وانا أعلم اننا موضوع حديثهم هنا وهناك .

ولم تجبه شارلوت ، وبدا ان البرت يشعر بصمتها . وعلى الاقل منذ

ذلك الحين لم يعد للكلام قط عن فيرتر ، وكان اذا طرقت الموضوع يترك الحديث عنه يموت ، او يوجهه وجهة اخرى .

وكانت المحاولة الفاشلة التي قام بها فيرتر لانقاذ القاتل الشقي هي اخر خفقة واهنة لشعلة توشك ان تخمد . فقد استولت عليه بعد ذلك فورا تقريبا حالة من الوجوم والجمود ، الى ان اضطرب تمام الاضطراب حين علم انه سيدعى للشهادة ضد المتهم الذي ادعى البراءة التامة .

واخذت نفسه تعاني القهر من ذكرى كل الجدود العاثرة والنكبات التي مرت به في ماضي حياته . فالهوان الذي مني به في صحبة السفير ، ثم متاعبه اللاحقة ، بعثت حية في ذاكرته ، واقعده ذلك عن كل نشاط ، وزايلته همته . وانقطع عن مزاولة كل ألوان الشواغل التي يتكون منها نسيج الحياة العادية ، وصار فريسة وساوسه الخاصة وعاطفته المقيمة المقعدة لاحب النساء وأرقهن ، وهي التي دمر هدوءها وسلامها النفسي .

وانقضت ايامه في تلك الرتابة التي لا تعرف التباين ، وأنهكت قواه بدون هدف او غاية ، الى ان انتهت به نهاية اسيفة .

وثمة خطابات قلائل تركها من بعده ، نوردها هنا ، وهي خير دليل على قلقه النفسي واضطراب تفكيره وعمق عاطفته ، كما انها خير دليل ايضا على شكوكه وهواجسه وصراعاته وسأمه الحياة .

١٢ ديسمبر

عزيزي فلهلم .

لقد اصبح حالي حال اولئك التعساء العاثري الحظ الذين يعتقدون انهم فريسة روح شرير يتعقبهم ، فأحيانا يستولي علي ، لا احساس بالتوجس والخوف ، بل اثارة داخلية لا يمكن وصفها ، تثقل على قلبي ، وتعترض انفاسي ! عندئذ اضرب في الارض ليلا ، حتى في هذا الموسم العاصف ، واجد لذة في تأمل المشاهد الرهيبة من حولي .

وامس مساء خرجت وتجولت ، وكان دفء سريع يذيب الثلوج قد حل علي حين غرة ، وقيل لي ان مياه النهر ارتفعت ، وان جميع الجداول قد فاضت على ضفافها ، وان وادي فالهايم قد اصبح كله تحت الماء ! ومع دقات انتصاف الليل اسرعت بالخروج ، فرأيت منظرا مخيفا ، فالسيول الهادرة كانت تتدفق من اعالي الجبال في ضوء القمر ، والحقول والمراعي والاشجار والاسوار النباتية اختلط بعضها ببعض ، وانقلب الوادي كله الى

بحيره عميقة الغور ، تضطرب مياهها تحت سياط الرياح المزمجرة . ولما سطع ضوء القمر ، وصبغ السحب الداكنة باللون الفضي وارغت السيول العارمة وازبدت تحت قدمي باندفاع عظيم مخيف ، استولى علي احساس غريب يجمع بين التوجس والحبور ، وبذراعين مفتوحتين حدقت من تحتي في الهوة التي فغرت فاها وصحت :

ــ ثب ! غص !

وتخلت عني حواسي لحظة في غمار الفرح العميق بوشك انتهاء احزاني وآلامي بوثبة واحدة اغوص بها في تلك الهاوية ! ثم احسست وكأني قد تسمرت في الارض فعجزت عن وضع نهاية لعذابي ! ان ساعتي لم تحن بعد . اشعر بذلك الان . آه يا فلهلم ، لكم كنت خليقا ان أتخلى طواعية عن وجودي ، كي اركب دوامة الرياح ، او لأعانق السيل المنحدر الطامي! او ليست النسوة عسيرة عندئذ ان تكون من نصيبه هذا الروح الطليق ؟

وادرت عيني الاسوانتين الاسيفتين صوب بقعة اثيرة ، حيث كنت متعودا ان اجلس مع شارلوت تحت صفصافة بعد مسيرة مجهدة . وا أسفاه ! لقد غمرتها المياه ، وبكل صعوبة تسقطت عيني المرعى . وفكرت في الحقول المحيطة بمقر الصيد . أترى دمرت هذه العاصفة التي لا ترحم عريشتنا الغالية ؟ وعندئذ ترقرقت على نفسي شماعة من سعادتي الغابرة ، على نحو ما تشرق نفس الاسير حينما تحلم بالقطعان والاسراب ومسرات موطنه الماضية ! ولكني خلي من الكلام .. ولدي الشجاعة والاقدام على الموت ! أجل لعلها لدي ... بيد اني لم ازل جالسا ها هنا ، كالمتسولة التعسة التي تجمع الحطب ، وتستجدي الخبز من باب الى باب، كي تطيل لبضعة ايام معدودات حياة شقية لا تطاوعها نفسها على التخلي عنها .

١٥ ديسمبر

ماذا دهاني يا عزيزي فلهلم ؟ خائف انا من نفسي ! او ليس حبي انا من انقى وأقدس العواطف الاخوية ؟ هل تدنست نفسي ابدا برغبة حسية او شهوانية واحدة ؟ ولكني لن أدافع عن نفسي ولن أحتج . والان ايتها الرؤى الليلية ، لكم اصاب فهمك اولئك البشر الفانون الذين عزوا تأثيراتك المتناقضة الى قوى لا تقهر ! الليلة ــ واني لأرتجف وانا اعترف بهذا ــ

ضممتها بين ذراعي ، في عناق قوي لا فكاك منه ، أجل ضممتها الى صدري وغمرت قبلات لا تحصى هاتين الشفتين الفاليتين اللتين كانتا نجيباني بأرق الفاظ الحب . وزاغ بصري وغام سكرا بخمر عينيها الرائعتين . رباه ! اخطيئة هي ان انتشي مرة اخرى بمثل هذه السعادة ، وأن استعيد مرة اخرى تلك اللحظات العلوية بأشد ما يكون من الجذل والحبور ؟ شارلوت ! شارلوت ! لقد ضعت ! حواسي مختلطة ، وذكرياتي مبلبلة ، وعيناي غارقتان في الدموع – مريض انا ، ولكني لم ازل مع هذا صحيحا معافى – لا اتمنى شيئا ، ولا ارجو شيئا ، ولا اشتهي شيئا ... الا انه كان خيرا لي واولى ان ارحل عن الدنيا .

وفي الظروف المذكورة آنفا سيطر على نفس فيرتر العزم على مغادرة هذا العالم . ومنذ عودةشارلوت صارت هذه الفكرة غاية جميع آماله وأمانيه ، بيد انه قرر ان مثل هذ الخطوة ينبغي الا تتخذ في تسرع ، بل بهدوء وطمأنينة ، وبأقصى ما يمكن من الروية .

ويمكننا ان نفهم متاعبه وصراعاته الداخلية من الشذرة التالية ، التي وجدت – بغير تاريخ – بين اوراقه ، ويبدو انها كانت بداية رسالة الى فلهلم :

. . . . .

حضورها ، وقدرها ، وتعاطفها نحوي ، لم تزل لها القدرة على استدرار الدموع من رأسي الواهن .

يرفع المرء الستار ، ويمر الى الجانب الاخر – وهذا كل شيء ! ولماذا كل هذه الشكوك والمطل ؟ لاننا لا ندري ماذا وراء الستار .. لانه لا عودة من هناك – ولأن عقلنا يستنتج ان كل شيء هناك ظلام وفوضى ، ما دام ليس تحت يدنا شيء قاطع .

***

واخيرا تغير منظره كثيرا ، بتأثير افكاره المكتئبة ، واتخذ اخيرا قراره النهائي الذي لا رجعة فيه ، الذي لعل الرسالة الغامضة التالية التي وجهها الى صديقه تقدم الدليل عليه .

٢٠ ديسمبر

اني مدين لك بالعرفان لما تكنه لي من حب يا فلهلم ، ولنصائحك الرصينة المتكررة . اجل ، انت على صواب ، فمن الافضل بلا شك ان ارحل . بيد اني لا أوافق تمام الموافقة على مشروعك بالعودة فورا الى جوارك ، لاني اريد على الاقل ان اقوم برحلة صغيرة في الطريق اليك ، ولاسيما اننا نتوقع الان صقيعا متواصلا ، مما يجعل الطرق جيدة . وانا مسرور جدا بانتوائك القدوم لاحضاري ولكن ارجيء رحلتك اسبوعين ، وانتظر رسالة اخرى مني ، فلا ينبغي للمرء ان يقطف ثمرة قبل اوانها ، واسبوعان من التبكير او التأخير يحدثان فارقا كبيرا . ناشد والدتي ان تصلي لاجل ولدها ، وقل لها اني استغفرها لكل الشقاء الذي سببته لها . فقد كان قدري دائما ان اسبب الالم لمن كان ينبغي أن أزيد في سعادتهم وداعا يا أعز صديق . ولتحل عليك كل بركات السماء ! وداعا .



واننا لنجد مشقة في التعبير عن المشاعر التي جاشت بها نفس شارلوت خلال هذ الفترة من الزمن ، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بزوجها ، او بصديقها المنكود ، وان كانت معرفتنا بطبعها تتيح لنا ان نفهم طبيعة هذه المشاعر .

ومن المقطوع به انها كانت قد اعتزمت بكل ما تحت سلطانها من وسائل ان تجعل بينها وبين فيرتر ضربا من المباعدة ، ولئن ترددت في قرارها هذا فعن شعور صادق بالرحمة والمودة ، لعلمها بمبلغ ما سيكلفه ذلك القرار من عنت . بل انه كان خليقا ان يجد ما يشبه الاستحالة في الانقياد لرغبتها . الا ان اسبابا متباينة حثتها على اتخاذ خطة الحزم معه . وكان زوجها قد لزم الصمت التام حول المسألة كلها ، ولم تجعلها هي موضوعا للحديث قط ، لشعورها ان من الواجب اللزام عليها ان تثبت له بسلوكها ان رأيها متفق مع رأيه ، ومشاعرها متفقة مع مشاعره .

وفي نفس ذلك اليوم ، الذي كان يوم الاحد السابق على عيد الميلاد ، جاء فيرتر الى بيت شارلوت ، بعد ان كان قد كتب الخطاب الذي اوردناه آنفا الى صديقه ، فوجدها بمفردها . وكانت مشغولة باعداد بعض الهدايا الصغيرة لاخوتها واخواتها ، كي توزعها عليهم يوم عيد الميلاد . وشرع فيرتر

يتكلم عن حبور الاطفال ، وعن تلك المرحلة من العمر التي يسبب فيها ظهور شجرة عيد الميلاد ، مزينة بالفاكهة والحلوى ، ومضاءة بالشموع ، هزة فرح . فقالت شارلوت ، مخفية حرجها تحت ابتسامة عذبة :

ــ وأنت ايضا ستنال هدية ، ان احسنت السلوك .

فقال :

ــ وما هذا الذي تسمينه سلوكا حسنا ؟ ماذا ينبغي ان اصنع ؟ وماذا يسعني ان اصنع يا عزيزتي شارلوت ..

فاجابته :

ــ مساء الخميس يوافق ليلة عيد الميلاد . وسيكون الاطفال جميعا هنا ، وكذلك ابي . وهناك هدية لكل واحد من الحاضرين . فتعال انت ايضا ، ولكن لا تأت قبل ذلك الحين .

فأجفل فيرتر ، فأردفت قائلة :

ــ أريد منك الا تحضر قبل ذلك الوقت ، فلا بد من هذا . اني اطلبه منك خدمة لي ، فليس في وسعنا ان نمضي على هذه الوتيرة بعد الان ...

فأشاح عنها بوجهه ، وراح يذرع الحجرة جيئة وذهابا ، وهو يغمغم بلفظ غير مبين :

ــ ليس في وسعنا ان نمضي على هذه الوتيرة بعد الان !

ولما ابصرت شارلوت ذلك الاضطراب العنيف الذي غمرته به هذه الكلمات ، حاولت ان تصرف ذهنه عن التفكير فيها بأسئلة مختلفة ، ولكن جهودها ذهبت هباء ، وصاح :

ــ كلا يا شارلوت ! لن اراك بعد الان !

فأجابته :

ــ ولم هذا ؟ في وسعنا .. بل يجب ان يرى كل منا الاخر ، ولكن اجعل ذلك مقترنا بمزيد من الحرص ! اوه ! لماذا ولدت بهذا الولع المفرط الجامح بكل ما هو عزيز عليك .

ثم تناولت يده وقالت :

ــ اناشدك ان تهدأ ، ولسوف تمدك مواهبك . وفهمك ، وعبقريتك بمدد لا ينفد . كن رجلا واقهر تعلقا تعسا لمخلوقة لا تستطيع لك شيئا ، اللهم الا الاشفاق عليك والرثاء لك .

فعض شفتيه ، ونظر اليها بسحنة واجمة ، واستمرت هي ممسكة بيده وقالت :

ــ اعرني لحظة صبر يا فيرتر . ألست ترى انك تخدع نفسك وانك

تسعى الى حتفك بظلفك ؟ لماذا لا بد لك من حبي ، انا وحدي ، التي انتمي الى رجل اخر ؟ اني لاخشى ، واخشى كثيرا ، ان تكون استحالة الحصول علي هي التي تجعل رغبتك في بهذه القوة !

فجذب يده من يدها ، وهو يتفحصها بنظرة ضارية غاضبة وصاح :

ــ حسن هذا ! حسن جدا ! أليس البرت هو الذي زودك بهذه الفكرة ؟ انها لملاحظة عميقة . عميقة جدا .

فأجابته :

ــ انها فكرة يمكن ان تخطر لاي انسان بسهولة . وهل لا توجد في العالم كله امرأة حرة وقادرة على اسعادك ؟ اقهر نفسك ، وابحث عن مثل هذه المخلوقة ، وصدقني وأنا اقول لك انك واجدها حتما . لقد شعرت منذ أمد طويل انك حبست نفسك اطول مما ينبغي داخل حدود دائرة غاية في الضيق . اقهر نفسك ، وابذل جهدا ، وقم برحلة قصيرة ، فسوف تجدي عليك جدا . وانشد واعثر لنفسك على موضوع جدير بحبك ، ثم عد الى هنا ودعنا نستمتع معا بكل السعادة التي تتيحها أكمل صداقة .

فأجابها فيرتر بابتسامة باردة :

ــ هذه الخطبة جديرة بأن تطبع ، ليفيد منها جميع المعلمين . فاسمحي لي يا عزيزتي شارلوت بمهلة قصيرة اخرى ، يكون بعدها كل شيء على ما يرام .

فقالت :

ــ ومع هذا يا فيرتر ، لا تعد قبل عيد الميلاد .

وأوشك ان يجيبها بشيء ما ، واذا بألبرت يدخل . وحيا كل منهما صاحبه بفتور ، وفي حرج متبادل راح كل منهما يذرع الحجرة . وادلى فيرتر ببضع ملاحظات شائعة المعنى ، وكذلك صنع البرت ، وسرعان ما انقطع بينهما الحديث ، وسأل البرت زوجته في بعض شئون البيت ، ولما وجد بعض مطالبه لم تنفذ ، استخدم تعبيرات بدت في أذني فيرتر بالغة الخشونة ، وأراد ان ينصرف ، ولكنه لم يجد القدرة على الحركة . وظل على هذا الوضع حتى الساعة الثامنة ، وضيقه وسخطه يتزايدان . واخيرا اعدت المائدة للعشاء ، فتناول عصاه وقبعته . ودعاه البرت للبقاء ، ولكن فيرتر حسبه يؤدي مجاملة شكلية ، فشكره بفتور وغادر البيت .

وعاد فيرتر الى البيت ، وتناول الشمعة من خادمه وأوى الى حجرته بمفرده ، وظل برهة يتحدث الى نفسه بكل حرارة ، وبكى بصوت مرتفع ،

وتمشى في الحجرة باهتياج شديد . واخيرا القى بنفسه ــ من غير ان يخلع ثيابه ــ على الفراش ، حيث وجده خادمه في الساعة الحادية عشرة ، عندما غامر بدخول الحجرة لخلع حذائه . ولم يمنعه فيرتر من ذلك ، ولكنه نهاه عن الدخول عليه في الصباح الى ان يدق له الجرس .

وفي صباح الاثنين ٢١ ديسمبر كتب الى شارلوت الرسالة التالية ، التي وجدت مختومة على مكتبه بعد وفاته ، فسلمت اليها .

وسأورد هنا في صورة شذرات ، حيث انه يبدو من ظروف عديدة انها كتبت على ذلك النحو :

ــ انتهى كل شيء يا عزيزتي شارلوت ، فقد قررت ان اموت ! واني اتخذ هذا القرار بأناة وروية وبرود اعصاب ، لا عن عاطفة رومانسية ، في صباح ذلك اليوم الذي سأراك فيه للمرة الاخيرة . ففي الوقت الذي تطالعين فيه هذه السطور ، يا خير النساء ، يكون القبر البارد قد ضم رفاتا هامدة هي رفات ذلك المخلوق القلق التعس الذي لم يعرف في اخر لحظات وجوده لذة تضارع حديثه معك ! لقد امضيت ليلة رهيبة ، بل الاولى ان اقول ليلة مبشرة بالخير ، لانها اتاحت لي العزيمة ، وحددت لي غايتي . لقد اعتزمت ان اموت ، فعندما انتزعت نفسي منك بالامس كانت حواسي مشوشة مختلة ، وقلبي مكروبا ، وقد هرب مني الامل والسرور الى الابد ، واستولت على كياني التعس برودة مروعة . فلم اكد استطيع الوصول الى حجرتي ، وهناك جثوت على ركبتي ، وجادت علي السماء لاخر مرة بعزاء الدمع المنهمر . وثارت في نفسي الف فكرة .. الى ان استولت اخر الامر على فؤادي فكرة ثابتة نهائية ان اموت ! فاستلقيت لاستريح ، وفي الصباح ، في ساعة اليقظة الهادئة ، وجدت ذلك التصميم نفسه مسيطرا علي : ان اموت ! انه ليس اليأس ، بل الاقتناع بأن كيل عذابي قد طفح ، واني وصلت الى اجلي المحتوم ، ولا مناص من تضحيتي بنفسي في سبيلك. اجل يا شارلوت ، ولم لا أعترف بذلك لك ؟ احدنا نحن الثلاثة لا بد ان يموت ، وهذا الواحد سيكون فيرتر . اي شارلوت المحبوبة ! ان هذا القلب الذي يجيش بالغضب كثيرا ما خامره ان اقتل زوجك ــ او اقتل نفسي ! واخيرا خرج السهم . وفي امسيات الصيف الصافية الهادئة ، عندما تتجولين احيانا صوب الجبال ، فكري في ، وتذكري كيف كنت ترقبينني وانا قادم لالقاك من الوادي . ثم وجهي ناظريك الى فناء الكنيسة التي تضم لحدي ، وفي ضوء

الشمس الغاربة لاحظي كيف يحرك النسيم العشب الطويل النامي فوق قبري . لقد كنت هادئا عندما بدأت هذه الرسالة ، ولكن ذكرى هذه المشاهد جعلتني ابكي كالطفل .

***

وحوالي الساعة العاشرة صباحا استدعى فيرتر خادمه ، واخبره — وهو يرتدي ملابسه — انه ينوي الانطلاق في رحلة بعد بضعة ايام ، ولذا أمره ان يرتب له ثيابه ، ويعدها للحزم ، وأن يسدد جميع حساباته ، ويسترد جميع كتبه التي كان قد أقرضها ، وأن يعطي راتب شهرين للفقراء والمعوزين الذين تعودوا ان يتقاضوا منه معونات اسبوعية .

وتناول بعد ذلك افطاره في حجرته ، ثم امتطى صهوة جواده وتوجه لزيارة ناظر الزراعة ، فلم يجده في البيت . فراح يتمشى متفكرا في الحديقة ، وبدا متلهفا على تحديد جميع الافكار المؤلمة له أشد الايلام .

ولم يتركه الاطفال وحده وقتا طويلا ، بل تتبعوه وراحوا يتراقصون حوله ، واخبروه انهم بعد غد ، وغدا ، ويوما اخر بعد ذلك ، سيتلقون هداياهم لعيد الميلاد من شارلوت ، وراحوا يحصون له الاعاجيب التي تخيلتها عقولهم الطفلة . فقال :

— غدا ... وبعد غد ، ويوما بعده ايضا !

وقبلهم بحنان . وهم بالانصراف ، بيد ان الولد الاصغر استوقفه كي يهمس بشيء في اذنه . قال له ان اخوته الاكبر منه كتبوا تمنيات جميلة للعام الجديد — كبيرة جدا — احداها لبابا ، وأخرى لشارلوت والبرت ، وثالثة لفيرتر . وان هذه التمنيات ستقدم في الصباح الباكر من يوم راس السنة . فتأثر فيرتر لهذا اعظم التأثر ، وأعطى كل واحد من الاطفال هدية ، ثم ركب حصانه وترك تحياته لبابا وماما ، وغادر المكان والدموع تجول في عينيه .

وعاد الى البيت في نحو الساعة الخامسة ، فأمر خادمه ان يبقي ناره مشتعلة ، وأن يحزم كتبه وثيابه الداخلية في قاع الحقيبة الضخمة ، وان يضع معاطفه على وجه الحقيبة ، ويبدو انه كتب بعد ذلك الاضافة التالية لرسالته الى شارلوت :

— انت لا تتوقعين قدومي . وتعتقدين اني سأطيعك ولا اعود لزيارتك حتى ليلة عيد الميلاد . اوه يا شارلوت . اما أن ازورك اليوم او لن ازورك

ابدا ! ففي يوم عيد الميلاد سـوف تمسكين بهذه الورقـة في يدك ، وسترتجفين وتبللينها بدموعك . سأفعل ذلك ـ لا بـد ! اوه ! مـا اسعدني بالتصميم !

وفي هذه الاثناء كانت شارلوت في حالة نفسية تثير الاشفاق . فبعد حديثها الاخير مع فيرتر ادركت مبلغ ما ينطوي عليه منعه عن زيارتها من ايلام لها ، وادركت كم سيكون هذا التفريق بينهما شديد الوطاة عليه .

وكانت في حديث مع البرت قد اشارت عرضا الى ان فيرتر سوف لا يعود قبل ليلة عيد الميلاد . وبعد ذلك بقليل ذهب البرت على صهوة جواده لزيارة شخص من اهل الجيرة كانت بينهما صفقة عمل سوف تستبقيـه عنده طول الليل .

وكانت شارلوت جالسة بمفردها ، وليس بقربها احد من افـراد اسرتها ، فاسلمت نفسها للافكار التي استولت على ذهنها . وهي مرتبطة الى الابد بزوج جربت حبه واخلاصه لها ، وهي متعلقة به تعلقا قلبيا ، حتى انه ليبدو لها هدية خاصة من السماء لضمان سعادتها وتأمينها . ومن جهة اخرى صار فيرتر عزيزا عليها ، وبينهما مشاركة عاطفية حميمة نشأت منذ اول ساعة التقيا فيها . ثم ان اجتماعاتهما ومقابلاتهما المتكررة تركت في فؤادها اثرا لا يمحى . وقد تعودت ان تفضي اليه بكل خاطر وكل شعور يخالجها ، حتى صار غيابه يهددها بايجاد فجوة من الخـواء في حياتها ربما كان من المستحيل ملؤها . ولكم تمنت من صميم قلبها لو استطاعت ان تحوله الى اخ لها ، وان تغريه او تستدرجه الى الزواج من احدى صديقاتها ، او يعيد المودة الحميمة بينه وبين البرت .

وراحت تستعرض بعين خيالها صديقاتها الحميمات ، بيد انها وجدت وجه اعتراض على كل واحدة منهن ، فلم يستقر رايها على اي واحدة منهن كي ترتضيها له .

وفي غمار هذه الاعتبارات شعرت شعورا عميقا ـ وان كان غـير متميز ـ ان رغبتها الحقيقية التي لا تريد الافصاح عنها ان تستبقيـه لنفسها . وانتاب فؤادها الطاهر الودود من جراء هذا الخاطـر احساس بالضيق يكاد يحرم عليها كل توقع للسعادة . وابتأست ، وخيمت علـى رؤيتها العقلية سحابة سوداء .

وكانت الساعة منتصف السابعة ، عندما سمعت وقع خطوات فيرتـر على السلم ، وعرفت صوته على الفور وهو يسأل اهي في البيت . ودق قلبها دقا عنيفا ـ ويكاد يكون ذلك لاول مرة ـ لاحساسها بوصوله . وكان

الوقت قد فات لانكار وجودها . وما ان دخل حتى هتفت به في ارتباك لم تحسن اخفاءه :

ـ اراك لم تبر بوعدك !

فأجابها :

ـ ولكني لم اعد بشيء .

فقالت :

ـ ولكن كان ينبغي عليك ان تستجيب لطلبي ، لاجل خاطري على الاقل ، بل اني لأناشدك ذلك من اجلنا كلينا .

ولم تكد تعرف ماذا قالت او فعلت ، ولكنها ارسلت في طلب بعض الاصدقاء ، ممن يحول وجودهم دون انفرادها بفيرتر . ووضع على النضد بضعة كتب كان قد جاء بها معه ، ثم سألها عن كتب اخرى ، الى ان بدأت تأمل في وصول اصدقائها بسرعة ، وان كانت في الوقت نفسه تمنت الا يحضروا .

وفي لحظة من اللحظات تملكها القلق لبقاء الخادم في الحجرة المجاورة، ثم لم تلبث ان عدلت عن رأيها . وكان فيرتر في هذه الاثناء يذرع الحجرة في صبر نافد . وتوجهت الى البيانو ، وقد قررت الا تنسحب ، ثم استجمعت افكارها وجلست بهدوء بجانب فيرتر ، الذي كان قد اتخذ مجلسه المعتاد فوق الاريكة .

وسألته :

ـ الم تأت معك بشيء تقراه ؟

ولم يكن معه شيء ، فقالت :

ـ هناك في درجي ستجد ترجمتك لبعض اغاني الشاعر أوسيان . وانا لم اقرأها بعد ، لان الامل لم يزل يخامرني ان اسمعك تلقيها بنفسك، ولكن لم تسنح لي الفرصة لتحقيق هذه الامنية من قبل .

فابتسم ، وذهب لاحضار المخطوط ، وتناوله وقد عرته رجفة ، ثم جلس ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وشرع في القراءة :

«يا نجم الليل الهابط ! ما احلى ضياءك في الغرب ! وانت ترفع رأسك غير المقصوص عن سحابتك ، وخطواتك فوق التل مهيبة . فماذا ترى في السهل ؟ لقد هدأت الرياح العاصفة وهمهمة السيل المنحدر تأتي من بعيد ، والامواج الهادرة تتسلق الصخرة النائية . وذباب المساء خف على اجنحته الواهنة ، وطنين مسارها يخيم على العقول . فماذا ترى ايها الضوء البهي ؟ ولكن هأنت تبتسم وترحل ، والامواج تحدق بك في حبور،

كي تغسل شعرك الجميل . وداعا ايها الشعاع الصامت ! دع ضياء روح اوسيان يشرق !

«وانه ليشرق بكل عنفوانه ! واني لأرى اصحابي الراحلين ، وقد تجمعوا فوق «لورا» ، كما كانوا يفعلون في سالف الايام . وها هو فنجان يأتي مثل عمود مائي من الضباب ! ومن حوله ابطاله ، وارى كذلك شعراء الغناء الصالحين : «أوليم» الاشيب الشعر ، و«رينو» المهيب ! و«اليين» الرخيم الصوت . واسمع شكوى «مينونا» الخافتة ! لكم تغيرتم يا اصدقاء ، منذ ايام مأدبة «سلمى» ، حينما كنا نتنافس ، مثل رياح الربيع التي تهب على امتداد التل ، وتحني تباعا اعواد العشب فينبعث منها صفير واهن !

«ها قد اقبلت «مينونا» بكل جمالها ، مطرقة دامعة العين . وشعرها يتطاير ببطء مع الانسام القليلة التي تهب من التل . وغمر الحزن ارواح الابطال عندما رفعت صوتها الرخيم ... فتراءى لاعينهم قبر «سلجار» ، والمقر المظلم لكولما ذات الصدر الابيض . وغدت «كولما» وحيدة فوق التل بكل صوتها الصادح ! ولقد وعد «سلجار» ان يأتي ، ولكن الليل خيم على كل ما يحيط بها . فاسمعوا صوت كولما عندما جلست وحيدة فوق التل !

«كولما : سجا الليل . وانا وحدي ، مهجورة فوق تل العواصف . وصوت الرياح يأتي من الجبال . والسيل يعول منحدرا فوق الصخر . وما من كوخ يأويني من المطر : منبوذة انا فوق تل الرياح !

«اطلع يا قمر من وراء السحاب ! يا نجوم الليل اشرقي ! وقدني يا ضياء الى المكان الذي يستجم فيه حبيبي من القنص وحده ! ان قوسه بقربه غير مشدودة الوتر ، وكلابه تلهث من حوله ! ولكنني هنا لا بد ان اجلس وحدي عند صخور الجدول . والجدول والرياح لهما هدير من حولي . ولا اسمع صوت حبيبي ! لماذا تأخر «سلجار» ؟ لماذا اخلف زعيم التل وعده ؟ ها هي الصخرة ، وها هي الشجرة، وها هو الجدول الهادر ! وانت قد وعدت ان تأتي مع هبوط الليل . آه . حبيبي «سلجار» اين ذهب ؟ معك مستعدة انا ان اهرب من ابي . ومن اخي التياه . منذ زمن بعيد وسلالتانا اعداء ، ولكننا لسنا عدوين يا «سلجار» !

«كفي لحظة يا رياح عن الهبوب ! واصمت برهة يا جدول ! واتركا صوتي يرن فيسمعه كل ما حولي ، كي يسمعني حبيبي الجوال ! سلجار ! انها كولما تناديك . ها هي الشجرة والصخرة يا سلجار يا حبيبي . انا

هنا ! لماذا تؤجل حضورك ؟ عجبا ! .ها هو القمـــر الهادىء مقبـــل . والفيضان قد صار لامعا في الوادي ، والصخور صارت رمادية فـــي المنحدر . ولست اراه على كتف التل ؛ وكلابه لا تسبقه مؤذنة باقترابه . لا بد لي من الجلوس هنا وحدي !

«من اللذان يرقدان على العشب بجواري ؟ اهما حبيبـــي واخي ؟ حدثاني يا صاحبي ! ولكنهما لا يردان على كولما . حدثاني فأنا وحدي . وروحي تعذبها المخاوف . آه ! انهما ميتان ! وسيفاهما احمران مـــن القتال . واها لك يا اخي ! لماذا قتلت يا اخي «سلجار» ؟ ولماذا يا «سلجار» قتلت اخي ؟ عزيزين علي كنتما كليكما ! وماذا اقول اطراء لكما ؟ لقد كنت انت الفذ فوق التل من بين الالوف ! وكان هو مروعا في القتال ! حدثاني! اسمعا صوتي ! اسمعاني يا فتيي حبي ! ولكنهما صامتان ، صامتان الى الابد ! وباردان ، باردان صدراهما الصلصاليين ! من صخرة التل ، ومن قمة المنحدر المعول الرياح . تكلمي يا اشباح الموتى ! تكلمي ، فلن اخاف ! اين ذهبت لتستريحي ؟ وفي اي كهف من كهوف التل سأجد الراحلين ؟ ما من صوت واهن تحمله الريح ، وما من جواب نصف غارق فـــي العاصفة !

«اني أجلس غارقة في حزني : انتظر الصباح غارقـــة في دموعي ! اقيموا الضريح يا اصدقاء الفقيدين ، ولا تغلقوه حتى تأتي كولما . حياتي تتبدد كحلم . لماذا اتخلف انا ؟ هنا سأبقى مع اصدقائي ، قرب الجدول والصخرة . وعندما يخيم الليل على التل ، وتثور الرياح العالية الصوت ، سيقف شبحي وسط الزوبعة ويندب موت اصدقائي . ولسوف يسمـــع الصياد من سقيفته ، ويخاف . ولكنه سيحب صوتي ! لان صوتي سيكون عذبا لاصدقائي : فقد كان اصدقاء كولما اعزاء عليها .

«هكذا كانت اغنيتك يا «مينونا» ابنة «تورمان» التي يحمر وجههـــا خجلا . ان دموعنا همت لاجل كولما ، وكانت ارواحنا حزينة ! وجـــاء «اولين» بمزهره وعزف عليه اغنية «اليين» . كان صوت اليين رخيما ، وروح رينو كانت لسانا من لهب ! ولكنهما كانا قد بقيا في البيت الضيق ، وتوقف صوتهما في «سلمى» . وكان أولين قد عاد ذات يوم من الصيد قبل سقوط البطلين . وسمع صوت نزاعهما فوق التل . كان غناؤهما حزينا. كانا يبكيان سقوط «مورار» ، اول البشر الفانين ! كانت روحه مثل روح «فنجال» ، وسيفه مثل سيف «اسكار» ، ولكنه سقط ، وبكـــاه ابوه ، وامتلأت عينا اخته بالدموع . عينا مينونا كانتا ملآنتين بالدمـــوع ، اخت

«مورار» كانت . وانسحبت من اغنية «أولين» ، كما ينسحب القمر في الغرب عندما يتوقع الغيث ويخفي راسه في سحابه . ولمست انا مزهر اولين . فتصاعدت اغنية الحزن !

«رينو : الريح والمطر قد انتهيا . والظهيرة هادئة . والسحب في السماء متفرقة . وفوق التلال الخضر تسطع الشمس . ومن الوادي الصخري ينحدر جدول التل احمر اللون . ما احلى خريرك ايها الجدول ! ولكن الصوت الذي اسمعه احلى من خريرك . انه صوت «ألبين» ، ابن الاغنية ، يندب الموتى ! وراسه قد حنته السن ، وعيناه الدامعة حمراء. لماذا ــ يا «ألبين» يا بن الاغنية ــ اراك وحدك على التل الصامت ؟ لماذا تشكو بصوت كأنين الريح في الغابة ، وكموجة على شاطىء موحش ؟

«ألبين : دموعي يا «رينو» من اجل الموتى ــ وصوتي لاجل من رحلوا عن دنيانا . طويل انت فوق التل ، ووسيم انت بين ابناء الوادي . ولكنك سوف تسقط مثل مورار ، وسيعقد النادب على قبرك . ولن تعرفك التلال من بعد ، وقوسك ستكون ملقاة في بهوك غير مشدودة الوتر .

«لقد كنت سريعا يا مورار ! كالابل في الصحراء . ورهيبا كنت كشهاب من نار . وغضبك كان مثل العاصفة ، وسيفك في المعركة كالبرق في الحقل . وصوتك كان كالجدول عقب المطر ، وكالرعد فوق التلال البعيدة . كثيرون سقطوا بقوة ذراعك ، وأكلتهم نيران غضبك . ولكن عندما عدت من الحرب ، كم كان جبينك هادئا مسالما ! كان وجهك كالشمس بعد المطر ، وكالقمر في سكون الليل ، وهادئا كوجه البحيرة عندما تسكن الريح المدوية .

«ما أضيق مسكنك الان ! وما أشد ظلمة مثواك ! بثلاث خطوات تدور حول قبرك يا من كنت عظيما جدا من قبل ! واربعة احجار تغطي رءوسها الطحالب هي كل شاهد قبرك . وشجرة لا تكاد تنبت فيها ورقة ، وعشب طويل تصفر فيه الرياح ، هما كل ما يرشد عين الصياد الى قبر مورار الجبار ... مورار ! ما انكدك حقا ، فلا ام لك تندبك ، ولا فتاة تذرف عليك دموع الحب . فمن ولدتك قد ماتت ، وابنة مورجلان سقطت صريعة .

«ومن هذا المتكىء على عكازه ؟ من هذا الذي ابيض رأسه بحكم السن، واحمرت عيناه من كثرة البكاء ، ويهتز مع كل خطوة يخطوها ؟ انه ابوك يا مورار ! الاب الذي لم ينجب سواك . لقد سمع بشهرتك في الحرب،

وبما شتت قوتك من اعداء . لقد ترامى اليه صيت مورار ، فلماذا لـــم يسمع بالجرح الذي اصابه ؟ ابك يا والد مورار ! ابك ما استطعت، ولكن ولدك لن يسمعك ! فما اعمق نوم الموتى ، غائرة وسادتهم في التراب . لن يسمع صوتك بعد الان ، ولن يوقظه نداؤك . متى اذن يحين وقت النهار في القبر . كي تؤذن النيام بالنهوض ؟ وداعا يا أشجع الرجال ! يا قاهر الميدان ! ولكن الميدان لن يراك بعد الان ، ولا الغابة المظلمة سبضيء ظلمتها بهاء سيفك . انك لم تنجب ولدا ، ولكن الاغنية ستخلـــــد اسمك . وستسمع الاجيال القادمة بشهرتك ... سيسمعون بمصرع مورار !

«وثار حزن الجميع وفاض ، ولكن زفرة «ارمين» كانت اشدهـــــا حزنا . فهو يذكر موت ولده الذي سقط صريعا في ايام شبابه . وكـــان كارمور عن كثب من البطل ، فسأل لماذا يصعد أرمين الزفرات ؟ اهناك ما يدعو للحزن ؟ ان الاغنية تذوب مع موسيقاها فتروق النفس ، فمـــا أشبهها بالضباب الناعم الذي يتصاعد من البحيرة ، وينسكب على الوادي الصامت . والازهار الخضر قد غمرها الندى ، ولكن الشمس تعود فـــي عنفوانها ، فيتبدد الضباب . لماذا انت حزين يا أرمين يا زعيم جورمـــا التي يحيط بها البحر ؟

«حزين انا ! وليس سبب حزني بالهين ! انك يا كارمور لم تفقد ولدا، ولم تفقد ابنة حسناء . ان كولجار الوغد على قيد الحياة . وانيرا أجمل الفتيات . ان اغصان عائلتي عالية ، يا كارمور ، ولكن ارمين اخر سلالته. ما أحلك فراشك يا دورا ! وما اعمق نومك في القبر ! فمتى تستيقظين اذن بأغانيك ، وبكل صوت الموسيقى ؟

«استيقظي يا رياح الخريف ، وهبي على العشب . ويا جداول الجبال زمجري ، وزمجري يا زوابع على خمائل بلوطـــــي ! وسر بين السحب المتقطعة يا قمر ! وأرنا وجهك على فترات ، وأعد الى ذهني الليلة التـــي سقط فيها جميع اطفالي صرعى . حينما سقط «أرندال» الجبار، وسقطت دورا الحسناء . دورا يا ابنتي . لقد كنت بهية ... بهية مثل القمر فوق « فورا» ، وبيضاء مثل الثلج ، وعذبة كالنسيم العليل . لقد كانت قوسك قوية يا اندال ، وكان رمحك سريع الاندفاع في الميدان ، وكانت نظرتك كالضباب فوق المرج ، ودرعك كانت سحابة حمراء وسط العاصفة ! وجاء «ارمار» الشهير في الحروب يطلب حب دورا . ولم يطل رفضه وكان امل اصدقائهما عريضا .

«وكان «ايراث» بن «ادجال» ساخطا متبرما ، لان ارمار كان قد قتل اخاه ، فجاء متنكرا كأحد ابناء البحر ، وكان مركبه جميلا فوق الموج ، وخصلاته كانت بيضاء بفعل السن ، وكان جبينه الحاد هادئـــا صافيا ، وقال : «يا اجمل النساء وابنة ارمين المحبوبة ! ان صخرة بعيدة جدا في البحر تنبت فيها شجرة ، ثمرتها الحمراء تلمع من بعيد . وهناك ينتظر «ارمار» «دورا» ، وقد جئت كي احمل اليه حبيبته !.. وذهبت ، ونادت ارمار ، فلم يجبها احد الا ابن الصخر ، ارمار ! يا حبي . يا حبي ! لماذا تعذبني بالخوف ؟ اسمعني يا بن ارنارت . اسمعني ! دورا هي التـــي تناديك . وفر «ايرات» الخائن ضاحكا الى البر . ورفعت هي صوتها ، ونادت اخاها وأباها ارندال ! ارمين ! لا احد ينقذك يا دورا ..

«وجاء صوتها عبر البحر . ونزل ابني ارندال من التل ، ومعه اسلاب الصيد ، وسهامه تصلصل الى جانبه ، وقوسه في يده ، وخمسة كلاب مرحة تقفو خطاه . ورأى «ايرات» المتوحش على الشاطىء ، فقبض عليه وشد وثاقه الى شجرة بلوط بكتاف من الجلد حول اطرافه ، فملأت تأوهاته ادراج الرياح . وركب ارندال زورقه وشق به العباب كي يعود الى الارض بدورا ، وجاء ارمار في كل غضبه ، واطلق سهمه المريش ، فغاب السهم في قلبك يا ولدي ارندال ! وبدلا من «ايرات» الخائن كنت الضحيـــة . وتوقف المجداف على الفور ، وارتطم الزورق بالصخر . ما اشد حزنك يا دورا حينما اريق على قدميك دم اخيك ؟ لقد تحطم القارب نصفين ، والقى ارمار بنفسه في اليم كي ينقذ دوراه او يموت . وفجأة هبت ريح صرصر من التل في الامواج ، وغاص ارمار ولم يظهر له اثر .

«وكان صوت ابنتي يسمع من بعيد ، من وسط البحر المحفـــوف بالصخور ، باكية شاكية ، وتعالى صراخها متكررا لا ينقطع . ماذا كـــان ابوها عسيا ان يصنع ؟ لقد وقفت طول الليل على الشاطىء ، ورأيتها في ضوء القمر الواهن ، وظللت أسمع صرخاتها طول الليل ، وللريح هزيـــم عال ، والمطر ينهمر على التل بكل قوة . وقبل انبلاج الصبح ضعف صوتها، ثم تلاشى مثل نسيم المساء وسط العشب والصخور . ماتت حزنا وغما ، وتركتك يا ارمين وحيدا . ذهبت في الحرب قوتي ، وراحت مفخرتي بين النساء . وعندما تثور العواطف ، وحينما ترفع ريح الشمال امواج البحر عاليا ، أجلس على الشاطىء ، وأنظر الى الصخرة القاتلة .

«وكثيرا ما ارى في ضوء القمر الجانح للمغيب اشباح ابني وابنتي ، يسيران جنبا الى جنب منهمكين في حوار حزين» .

***

وتوقف فيرتر عن القراءة حينما راى الدموع تنهمر من عيني شارلوت، وتخفف عن قلبها الذي اضناه الاسى ، والقى الكتاب من يده . وامسك بيدها ، وبكى بكاء مرا . واتكأت شارلوت على يدها ، ودفنت وجهها في منديلها ، فقد كان تأثرهما كليهما بالغا أشده ، لانهما شعرا ان مصائب أبطال «اوسيان» تصور قدرهما التعس . شعرا بهذا كلاهما ، فتضاعفت دموعهما . واسند فيرتر جبينه الى ذراع شارلوت ، فارتجفت ، وارادت الخروج من البحيرة ، الا ان الاسى والحزن والتعاطف الحميم كانت كالعبء الثقيل على روحها . وبعد قليل استعادت رباطة جأشها ، ورجت فيرتر بصوت يقطعه النحيب ان يتركها وحدها .. وتوسلت اليه بكل حرارة ان يستجيب لطلبها ، فارتجف ، وكاد قلبه ينشق ، ثم تناول الكتاب مرة اخرى . واستأنف القراءة ، بصوت تقطعه الزفرات والانتحاب:

«لماذا توقظني ايها الربيع ؟ ان صوتك يناشدني هاتفا بي :

«اني أنعشك بالأنداء السماوية» ... ولكن أوان فنائي قد اقترب ، لان العاصفة التي ستذبل اوراقي وتسقطها باتت وشيكة القدوم . وغدا سيأتي المسافر ، سيأتي ذلك الذي رآني في نضارة الجمال ، وسوف يبحث عني في أرجاء الميدان ، ولكنه لن يجدني» .

***

وأصابت هذه الكلمات بكل قوتها فيرتر التعس ، فالقى بنفسه وقد فاض به اليأس على قدمي شارلوت ، وامسك بيديها ، وضمهما بقوة الى

عينيه وعلى جبينه ، فخطر لها ـ لاول مرة ـ ما يدور بذهنه من اعتزام الموت ، فارتبكت حواسها ، وامسكت بيديه ، وضمتهما الى صدرها ، ومالت فوقه بأرق مشاعر الشفقة ، ولامس خدها الحار خده ، وغاب كل شيء عن ناظريهما ، فطوقها بذراعيه وضمها الى صدره ، وغمر شفتيها المرتجفتين بقبلات محمومة . وهتفت شارلوت بصوت واه وهي تشيح عنه:

ـ فيرتر ! فيرتر !

وبيد واهنة دفعته بعيدا عنها ، فخر على ركبتيه امامهـــا ، فنهضت شارلوت ، وبحزن مشوش ، وبصوت اختلـــط فيه الحب بالاستياء ، هتفت به :

ـ هذ هي المرة الاخيرة يا فيرتر ! لن تراني بعد الان !

ثم رمقت عاشقها التعس بنظرة حنان اخيرة ، واندفعت الى الحجـــرة المجاورة واغلقت الباب بالمفتاح . ومد فيرتر ذراعيه ، ولكنه لم يجسر على ان يستبقيهما ، وظل راكعا على الارض ، ورأسه ملقى على الاريكة نصف ساعة ، الى ان سمع الصوت الذي رده الى صوابه . ودخلت الخادمة ، فنهض وراح يذرع الحجرة . ولما غادرت الخادمة الحجرة وتركته وحده اتجه الى باب شارلوت وقال بصوت خفيض :

ـ شارلوت ! شارلوت ! كلمة واحدة اخيرة ! كلمة وداع اخير ! فلم ترد عليه جوابا . فتوقف ، واصغى ، وعاد يتوسل ، ولكن الصمت ظل سائدا ، وأخيرا انتزع نفسه من المكان صائحا :

ـ وداعا يا شارلوت ! وداعا الى الابد !

وظل فيرتر يجري حتى بوابة المدينة ، وكان الحراس يعرفونه فتركوه يمر في صمت . وكانت الليلة مظلمة وعاصفة ... والمطر والثلج يتساقطان بغزارة . فوصل الى باب بيته في نحو الساعة الحادية عشرة . ولاحـــظ خادمه دخوله بدون قبعته ، ولكنه لم يغامر بكلمة . وعندما اخذ يساعده في خلع ملابسه ، لاحظ انها مبتلة . وقد وجدت قبعته بعد ذلك على قمة

صخرة تطل على الوادي . ومن غير المتصور كيف تسنى له ان ينسلق الى هذه القمة في مثل هذه الليلة الحالكة العاصفة من غير ان يفقد حياته .

وأوى فيرتر الى فراشه ونام الى ساعة متأخرة . ولما استدعى خادمه في الصباح ليأتيه بالقهوة وجده منهمكا في الكتابة . فقد كان يضيف الى رسالته لشارلوت بالسطور التي نوردها فيما يلي :

«للمرة الاخيرة افتح هاتين العينين . وا أسفاه ! لن ترى هاتان العينان الشمس بعد الان ، وهي الان مغطاة بسحب كثيفة لا سبيل الى النفاذ منها . اجل ايتها الطبيعة ! البسي ثياب الحداد ، فطفلك ، وصديقك ، وعاشقك يدنو من نهايته !

«ان هذه الفكرة يا شارلوت ليس هناك ما يضارعها ، ومع ذلك تبدو لي كحلم غامض عندما أكرر قولي : ان هذا يومي الاخير ! الاخير يا شارلوت ، وما من كلمة يمكن ان تعبر عن هذا الخاطر حق التعبير ! اليوم الاخير !

هأنا اليوم اقف منتصبا بكل قوتي . وغدا سأكون ملقى على الارض هامدا باردا . اموت ! وما الموت ؟ كل ما يدور عنه في احاديثنا محض احلام . وقد رأيت اناسا كثيرين يموتون ، ولكن طبيعتنا الضعيفة كثيرة القيود بالغة الضيق، فليس لدينا تصور واضح لبداية وجودنا ولا لنهايته. انا في هذه اللحظة ملك نفسي — او بالاحرى ملك يمينك انت يا معبودتي ! — ولكن في اللحظة التي تليها سنفترق وتنفصم عرانا ، ربما الى الابد ! كلا يا شارلوت . كلا ! كيف يمكن لي ، وكيف يمكن لك ، ان نتلاشى وننعدم ؟ نحن موجودان . وما العدم ؟ ان هو الا كلمة . صوت لا معنى له ، لا يترك في العقل انطباعا . أترينني ميتا يا شارلوت ، مدفونا في الارض الباردة ، في لحد مظلم ضيق ؟ لقد كانت لي يوما ما صديقة هي كل شيء لي في اول الشباب . وماتت . وتبعت تابوتها ، ووقفت بجوار قبرها عندما انزلوا فيه التابوت . وعندما سمعت صرير الحبال حين فكت وجذبت ، وعندما ألقي اول رفش من التراب فوقه فكان لوقعه على اخشابه صوت اجوف ، اخذ يتضاءل شيئا فشيئا الى ان غطاه التراب

تماما ، عندئذ القيت بنفسي على الارض ، وقد انصدع قلبـــي واعتصره الحزن والاسى ... ولكني لم اعرف ما الذي حدث ، ولا ما الـــذي سيحدث لي . الموت ! القبر ! كلمتان لا افهم لهما معنى . اغفري لي . اغفري لي الامس . فذلك اليوم كان ينبغي ان يكون اخر يوم في حياتي! ايتها الملاك ! لاول مرة في عمري شعرت بالنشوة تتقد في اعمق اعمـاق روحي . انها تحب ! تحبني ! ولم‌تزل تحرق شفتي تلك النار المقدسة التي استقبلتاها من شفتيك . دفقات جديدة من الحبور تتملـــك روحي . سامحيني ! سامحيني !

«كنت اعرف انني عزيز عليك . رأيت ذلك في نظرتك الاولى النافذة، وعرفته من أول ضغطة من يدك . ولكن عندما كنت أغيب عنك ، وعندما كنت ارى البرت الى جوارك ، كانت شكوكي ومخاوفي تعاودني .

«اتذكرين الازهار التي ارسلتها الي ، عندما اعجزك في ذلك الجمع المحتشد ان تكلميني او تمدي الي يدك ؟ لقد قضيت نصف تلك الليلـة راكعا على ركبتي امام تلك الازهار ، ارى فيها براهين حبك ، بيد ان هذه الانطباعات تضاءلت بعد ذلك ، وانتهت الى التلاشي .

«كل شيء الى زوال وانقضاء ، ولكن الابدية بأسرها لا يمكن ان تخمد الشعلة الحية التي أذكتها بالامس شفتاك ، والتي تتقد الان في داخلي . انها تحبني ! هاتان الذراعان قد طوقنا خصرها ، وهاتان الشفتان ارتجفتا فوق شفتيها . انها لي ! اجل يا شارلوت ، انت لي الى الابد !

«وما معنى قولهم ان البرت زوجك ؟ انه قد يكون كذلك في هـــذا العالم ، وقد يكون اثما وخطيئة ان احبك في هذا العالم واصبو الـــى انتزاعك من أحضانه . اجل ، انها جريمة ، وانا الان اعانـــي عقوبتها ، ولكني استمتعت بكل حلاوة اثمي ! لقد استنشقت بلسما أنعش روحي . انت منذ هذه الساعة لي . اجل يا شارلوت . انت لي ! وانا الان ذاهب قبلك . ذاهب الى ابي وابيك . وسأسكب احزاننا امامه ، وسوف يمنحني العزاء والراحة الى ان تأتي انت . وعندئذ سأطير لملاقاتك . وأطالب بك ، وابقى بين أحضانك الابدية ، في حضرة العلي القدير .

«لست حالما . ولا انا اهذي . فباقترابي من القبر تزداد تصوراتي ومداركي وضوحا . سنوجد ، وسيرى كل منا الاخر من جديد . وسنرى والدتك . سأراها ، وسأعري امامها دخيلة قلبي . والدتك . امـــك .. التي هي صورة منك !»

***

وفي نحو الساعة الحادية عشرة سأل فيرتر خادمه هـل عاد البرت ، فأجابه : «نعم» ، لانه كان قد رآه مارا على صهوة جواده ، وعندئذ ارسل اليه فيرتر الكلمة التالية ، في ظرف غير مختوم (غير مغلق) .

«تكرم باقراضي غدارتيك لاعتزامي سفر ، وداعا» .

***

كانت شارلوت لم تنم الا قليلا في الليلة الماضية ، لان كل توجساتها تحققت على نحو لم يكن من الممكن ان تتوقعه او تتحاشاه . وكان دمهـــا يغلي في عروقها ، والف احساس اليم يعتصر قلبها النقي . هل ما تشعر به في صدرها من اتقاد انما هو بتأثير ضمات فيرتر المحمومة ؟ ام هـــو الغضب لتجاسره على ذلك ؟ ام هي المقارنة المحزنة بين حالتها الراهنة وبين تلك الايام الخوالي التي سادتها البراءة والطمأنينة والثقة بالنفس ؟ كيف يمكنها الان ان تدنو من زوجها ، وتعترف له بمشهد ليس من حقهـــا أن تخفيه عنه ، ولكنها مع هذا تشعر بعدم رغبتها في الاعتراف به ؟ لقد لزم كل منهما الصمت طويلا بازاء الاخر ، فهل ينبغي ان تكون هي البادئة بهتك حجاب هذا الصمت بمثل هذا الاكتشاف غير المتوقع ؟ انهـــا تخشى ان يكون مجرد انبائه بزيارة فيرتر سببا في تكديره واضطرابه ، وان يزداد

ضيقه وكربه بصراحتها الكاملة . وتمنت ان تتسنى له رؤيتها على حقيقتها، وأن يحكم عليها بدون تحيز ولكن أهي حقا متلهفة على ان يقرأ اعماق روحها وسريرتها ؟ ومن جهة اخرى ، امستطيعة هي ان تخدع مخلوقا كانت جميع افكارها مكشوفة له على الدوام ، كالبللور الشفاف ، فلم يحدث قط ان اخفت عنه شعورا من مشاعرها ؟

كل هذه الخواطر اقلقتها وأهمتها . وظل عقلها يفكر في فيرتر الذي فقدته الان ، ولكنها لا تستطيع ان تحمل نفسها على التنازل عنه ، وتعلم في الوقت نفسه انه لن يبق له شيء سوى اليأس ، ان هو فقدها الى الابد.

وتذكرت تلك المباعدة الغامضة التي رانت اخيرا بينها وبين البرت ، والتي لم تستطع قط ان تفهمها تمام الفهم ، فغدت في نظرها الان شيئا اليما ، يتجاوز المه كل حد . والحريصون والطيبون الذين ترددوا – قبل الان – في شرح وتفسير ما بينهم من خلافات ، ولزموا الصمت حول اسباب سخطهم الوهمي ، كثيرا ما تتعقد الظروف بعد ذلك بحيث يغدو التفاهم الكفيل بانقاذ الموقف مستحيلا . فلو ان الثقة الحميمة توثقت قبل الان فيما بينهم ، ولو كان الحب والتجلد الحنون قد اذكيا قلوبهم ووسعا من آفاقها ، فكان من المحتمل الا يكون اوان انقاذ صاحبنا قد فات .

ولكن ينبغي الا ننسى ظرفا بارز الاهمية . فمن رسائل فيرتر قد يمكننا ان نلاحظ انه لم يتكلف قط اخفاء رغبته المتلهفة على مغادرة هذا العالم . وكثيرا ما ناقش هذا الموضوع مع البرت . بل لم يكن هذا الموضوع النادر التداول في احاديث البرت مع شارلوت . وكان البرت مناهضا تمام المناهضة لمجرد التفكير في مثل هذا العمل ، وكان يحتد في التعبير عن ذلك بصورة غير معهودة فيه . بل انه اكثر من مرة الح الى فيرتر بأنه لا يؤمن بجدية تهديداته ، ولم يكتف بالسخرية منها ، بل وجعل شارلوت ايضا تشاركه الرأي بعدم تصديقها . ولذا كان قلبها مطمئنا عندما يتراءى لها هذا الموضوع على شيء من الجدية ، وان كانت لم تذكر لزوجها قط تلك المخاوف والتوجسات التي كانت تخامرها احيانا .

واستقبلت شارلوت البرت عند عودته بتحرج وضيق لم تحسن اخفاءهما . وهو ايضا كان منحرف المزاج ، لان صفقة العمل لم تتم ،

واكتشف ان ذلك الموظف الذي كان عليه ان يتعامل معه شخص عنيد ضيق الافق . وهكذا اصطلحت اشياء كثيرة على اثارة حنقه .

وسألها أحدث شيء اثناء غيابه ، فبادرت شارلوت الى القـــول ان فيرتر حضر في الليلة السابقة . وعندئذ سألها عن خطاباته ، فقالت له ان عددا منها قد وضع في حجرة مكتبه ، وعندئذ غادر الحجرة تاركا شارلوت وحدها .

والقى حضور الشخص الذي تحبه وتبجله انطباعا جديدا على قلبها ، فهدأ تذكرها واستحضارها لكرمه وحنانه ومودته من اضطرابها ، وأحست دافعا خفيا يدعوها ان تتبعه ، فحملت اشغال ابرتها وتوجهت الى مكتبه ، على نحو ما كان من عادتها ان تفعل فيكثير من الاحيان . ووجدته مشغولا بفض خطاباته وقراءتها . وبدا لها ان بعض تلك الرسائل لم يكن مستحبا، فألقت عليه بضعة اسئلة ، اجابها عنها بايجاز ، ثم جلس ليكتب .

ومرت عدة ساعات على هذه الوتيرة ، فزادت مشاعر شارلوت انقباضا. واحست مبلغ صعوبة الافضاء الى زوجها ــ مهما كانتالظروف ــ بالعبء الذي يثقل قلبها . وراح اكتئابها يتعاظم لحظة بعد لحظة ، كلما امعنت في محاولة اخفاء حزنها ودموعها .

وسبب لها حضور خادم فيرتر اشد الضيق. وسلمالخادم البرترسالة صغيرة ، اعطاها البرت ببرود لزوجته ، وهو يقول لها :

ــ اعطه الغدارتين .

ثم التفت الى الخادم واردف قائلا :

ــ وأتمنى له سفرا سعيدا .

فوقعت هذه الكلمات على شارلوت وقع الصاعقة ، فنهضت مـــن مقعدها نصف مغشي عليها ، غير شاعرة بما تصنع . ومشت بطريقـــة

آلية الى الحائط ، وانزلت الغدارتين مرتجفة ، ونفضت عنها التـــراب ببطء ، وكانت حرية ان تبطىء اكثر من ذلك لولا ان البرت تعجلها بنظرة تدل على نفاد الصبر ، وعندئذ سلمت السلاح الى الخادم ، من غير ان تواتيها المقدرة على التلفظ بكلمة . وما ان خرج الخادم حتى طوت اشغالها، واوت فورا الى حجرتها ، وقد تكاثرت اعنف الهواجس ونذر الشر علـــى قلبها . فقد توقعت كارثة فظيعة . واوشكت في لحظة من اللحظات ان تذهب الى زوجها ، وتلقي بنفسها عند قدميه وتخبره بكل ما حدث فـــي الليلة السابقة ، معترفة بخطئها ، وتعرفه بتوجساتها ، ثم رات ان مثل هذه الخطوة عديمة الجدوى ، لانها لن تفلح في اقناع البرت بزيارة فيرتر.

واعدت مائدة الغداء ، وكانت هناك صديقة رقيقة أقنعتها شارلـوت بالبقاء كي تدب الحياة في حديث المائدة الذي ظل مع هذا متعثرا ، الى ان تنوسيت أحداث الصباح .

***

ولما اتى الخادم فيرتر بالغدارتين ، تلقاهما بحبور شديد لما عرف ان شارلوت هي التي قدمتهما اليه بيدها . واكل شيئا من الخبز ، وشرب شيئا من النبيذ ، وصرف خادمه ليتناول غداءه وجلس ليكتب ما نورده فيما يلي :

«لقد كانتا في يديك . وانت التي نفضت الغبار عنهما . لهذا اقبلهما الف قبلة ، لانك لمستهما . اجل ان السماء تؤيد ما اعتزمته . وها انت يا شارلوت تقدمين لي هذه الوسائل المميتة بنفسك . لقد كانت امنيتي ان اتلقى منيتي من يديك ، وها هي رغبتي قد تحققت . لقد سالت خادمي، فقال انك كنت ترتجفين وانت تقدمين له الغدارتين ، ولكنك لم تذكـري كلمة توديع واحدة لي . يا لي من تعس . الا كلمة وداع واحدة ؟ كيف تسنى لك ان تغلقي قلبك دوني في تلك اللحظة التي ستجعلك لي الـــى

الابد ؟ اواه يا شارلوت ؟ ان العصور لا يمكنها ان تمحو هذا الانطباع ...
انطباع انك لا يمكن ان تكرهي الرجل الذي يحبك بجنون !» .

***

وبعد الغداء استدعى خادمه وكلفه بالانتهاء من حزم الامتعة ، واحرق اوراقا كثيرة ، ثم خرج للوفاء ببعض الديون الصغيرة ، وسرعان ما عاد بعد ذلك الى البيت ، ليخرج ثانية برغم المطر ، فتمشى برهة في حديقة الكونت ، ثم خرج وجعل يتجول في الخلاء . وقبيل المساء عاد الى البيت ، واستأنف الكتابة .

«فلهلم ! لقد رايت الجبال والغابات والسماء للمرة الاخيرة . وداعا ! وانت يا امي العزيزة ، سامحيني ! عزها يا فلهلم ، بارك الله فيك ! لقد سويت جميع شئوني ! وداعا ! وسنلتقي مرة اخرى ، ونكون اسعد من اي وقت مضى» .

«لقد آذيتك كثيرا يا البرت ، ولكنك ستغفر لي . لقد كدرت سلام بيتك ، وبذرت عدم الثقة فيما بينكما . وداعا ! سأنهي كل هذه التعاسة . وليت موتي يسعدكما ! البرت ! البرت ! اسعد هذا الملاك ، ولتحل عليك بركة السماء !» .

وقضى بقية المساء في ترتيب اوراقه ، ومزق واحرق الكثير ، وختم بالشمع اوراقا اخرى ، ووجهها الى فلهلم . وكانت فيها خواطر واقوال مأثورة . وقد قرأت بعضها بامعان . وفي الساعة العاشرة امر باشعال ناره ، وباحضار زجاجة نبيذ . ثم صرف خادمه ، وكانت حجرته وحجرات سائر الاسرة في ناحية اخرى من الدار . واستلقى الخادم بثيابه كي يكون متأهبا بأسرع ما يمكن للانطلاق في الرحلة المزمعة عند

طلوع النهار ، فقد انباه سيده ان خيول البريد ستكون امام الباب قبل السادسة .

«ها قد تجاوزت الساعة الحادية عشرة ! وكل شيء ساكن فيما حولي، ونفسي هادئة . اشكرك يا ربي لانك منحتني القوة والشجاعة في هذه اللحظات الاخيرة ! هأنا اقترب من النافذة يا أعز الاصدقاء ، ومن خلال السحب التي تسوقها الرياح سوقا سريعا في هذه اللحظة ارى النجوم التي تضيء سماوات الابدية . كلا ! لن تسقطي ايتها الاجرام السماوية ، لان يد القادر العلي تسندك وتسندني ! وقد نظرت للمرة الاخيرة الى مجموعة الدب الاكبر ، فهي نجمي المفضل ، فعندما ودعتك ليلا يا شارلوت ، وأبعدت خطواتي عن بابك كان هذا النجم ساطعا فوقي ! ولكم نظرت اليه في بعض الاحيان بانتشاء وحبور ! ولكم ناشدته بيدين مرفوعتين الى السماء ان يشهد على هنائي !.. ولكن اين هو الشيء الذي لا يذكرني بصورتك يا شارلوت ؟ الست محيطة بي من جميع الجهات ؟ او لم اكتنز – كالطفل – كل صغيرة وكبيرة اكتسبت في نظري القداسة بلمسك اياها ؟

«لقد توسلت الى ابيك ان يحمي رفاتي . ونمة في ركن فناء الكنيسة المطل على الحقول شجرتا زيزفون ... هناك يا شارلوت أود ان أدفن . ويستطيع ابوك بلا شك ان ييسر ذلك لصديقه . فالتمسي منه هذا . ولكن لعل اتقياء المسيحيين لا يودون ان توارى أجسادهم التراب قرب منكود مسكين مثلي . فاذا كان الامر كذلك ابعدوني الى واد مهجور ، او قرب الطريق الخاوي العام ، حيث يمر الكاهن واللاوي بقبري مستعيذين ... اما السامري فيذرف على مصيري دمعة .

«انظري يا شارلوت . لست ارتجف وانا اتناول الكأس الباردة المميتة ، التي منها سأشرب جرعة الموت . يدك هي التي تقدمها لي . لهذا لست ارتعد . لقد ختم الان كل شيء ، وآمال عمري وامانيه قد تحققت . وبيد باردة غير محجمة اطرق ابواب الموت !

«ما احظاني بسعادة الموت لاجلك ! لكم كنت خليقا ان اسر بتضحية

نفسي لك يا شارلوت ! وليتني أعيد السلام والحبور الى قلبك ، اذن بكل العزم وبكل السرور كنت القى مصيري ! ولكن القلة المختارين هم الذين يسفكون دمهم في سبيل اصدقائهم ، ويكتب لهم ان يزيدوا بموتهم سعادة محبوبيهم الف ضعف .

«واريد يا شارلوت ان ادفن في الثوب الذي ارتديه الان ، فقد اكتسب قداسة من لمسك اياه .. وقد طلبت تلك الحظوة ايضا من ابيك، ان روحي تحلق فوق لحدي . ولا اريد ان يفتش احد جيوبي .. وهناك تلك الانشوطة من الشريط الوردي الذي كنت ترتدينه فوق صدرك اول مرة رايتك فيها ، والاطفال من حولك ـ قبليهم الف مرة نيابة عني ، وابلغيهم مصير صديقهم المنكود ! يخيل الي اني اراهم يلعبون من حولي . يا للاطفال الاعزاء ! لكم تعلقت بك بكل حرارة يا شارلوت منذ الساعة الاولى التي رايتك فيها . وكم استحال علي ان افارقك ! تلك الانشوطة يجب ان تدفن معي ، فقد كانت هديتك الي في يوم عيد ميلادي . لكم يبدو كل شيء مختلطا ! وما كان يخطر ببالي اني سأسلك هذا الطريق ! ولكن ليحل عليك السلام يا شارلوت !

«الغدارتان محشوتان . والساعة تدق الثانية عشرة ! وانا اقول آمين . شارلوت . شارلوت ! وداعا . وداعا» .

ورأى احد الجيران الومضة ، وسمع دوي الغدارة ، ولكن لم يلبث السكون ان ساد ، فطرد ما راى وما سمع من ذهنه .

وفي الصباح ، في الساعة السادسة ، دخل الخادم حجرة فيرتر وفي يده شمعة ، فالفى سيده ممددا على الارض ، غارقا في دمه ، والغدارتان الى جانبه . وناداه واحتواه بين ذراعيه ، ولكنه لم يفز بجواب . ولم تكن الحياة قد فارقته بعد ، فأسرع الخادم الى جراح ، ثم ذهب لاحضار البرت . وسمعت شارلوت صوت الجرس ، فاستولت عليها قشعريرة باردة ، وأيقظت زوجها ، ونهض الاثنان وافضى الخادم الفارق في دموعه اليهما بالنبأ ، فوقعت شارلوت مغشيا عليها تحت أقدام البرت .

ولما اتى الجراح الى فيرتر العاثر الحظ ، وجده لم يزل راقدا على الارض ، وقلبه ينبض . بيد ان أطرافه كانت باردة . وكانت الرصاصة قد دخلت من الجبهة فوق العين اليمنى ، واخترقت الجمجمة . وكان شريان في ذراعه اليسرى مفتوحا والدم يسيل منه ، ولم تزل أنفاسه تتردد .

ولما كان هناك دم يتساقط من فوق الكرسي ، فلا بد انه اقدم على فعلته الطائشة وهو جالس الى مكتبه ، ثم سقط بعد ذلك على الارض .. حيث وجد ممددا على ظهره قرب النافذة ، بملابسه الكاملة .

وعلى الفور ساد الاضطراب الدار ، والجيرة ، والمدينة كلها ، ووصل البرت . وكانوا قد سجوا فيرتر في فراشه ، وربطوا دماغه بالضمادات، وعلت وجهه صفرة الموت . واطرافه لم يكن بها حراك ، ولكنه لم يزل يتنفس ، بقوة احيانا ، وفي وهن احيانا اخرى ... وصار موته متوقعا في اي لحظة .

وكان قد شرب كوبا واحدا من النبيذ . وزجاجته المفتوحة فوق المكتبة .

ولن اقول شيئا عن نكد البرت او عن حزن شارلوت .

واسرع ناظر الزراعة الشيخ الى الدار فور سماعه بالنبأ ، وعانق صديقه المحتضر وسط فيض من الدموع ، وسرعان ما حضر الكبار من اولاده راجلين . وفي حزن لا يوصف جثوا على ركبهم بجوار سريره ، وقبلوا يديه ووجهه . وكان اكبرهم آثرهم عنده ، فتعلق به الى ان فاضت روحه ، ولم يبعدوه عنه بعد ذلك الا قسرا .

وفي الساعة الثانية عشرة لفظ فيرتر انفاسه الاخيرة . وكان لحضور ناظر الزراعة والاحتياطات التي اتخذها اثرهما في منع الازعاج . وتحت جنح الليل ، في الساعة الحادية عشرة ، اجري مواراة الجثمان في المكان الذي اختاره فيرتر لنفسه .

وتبع ناظر الزراعة وأولاده الجثمان الى القبر . ولم يتمكن البرت من مرافقتهم ، فقد كانت حياة شارلوت ميئوسا منها . وقد حمل بعـــض الفلاحين الجثة ، ولم يحضر الدفن قسيس .

تمت







القصص العالميّة للجميع

الفرسان الثلاثة "جزئين"	اسكندر ديماس
الكونت دي مونت كريستو	〃
ذهب مع الرّيح "جزئين"	مارغريت ميتشل
رجال ونساء .. وحبّ	جون شتاينبك
ليلة غرام	سومرست موم
كنت جاسوسا	〃
غادة الكاميليا	مارسيل موريت
جريمة في الريفيرا	جورج سيمنون
الأرض الطيبة	بيرل باك
عذارى المعبد	〃
ايفانهو "أو الفارس الأسود"	سير والتر سكوت
دافيد كوبرفيلد	شارل ديكنز
أحدب نوتردام	فيكتور هيغو
الام فرتر	يوهان جوته
العجوز والبحر	ارنست همنغواي
سوف تشرق الشمس	〃
الكأس الأخيرة	اجاثا كريستي
عدالة السماء	〃
القاتل الخفي	〃
الرجل الغامض	〃
غادة طيبة	〃
عذراء وثلاثة رجال	جيمس هيلتون